روح القرآن

تفسير سُورة آل عمران

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

قال محمد رسول الله ﷺ :

إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه

سورة آل عمران

روح القرآن

١

تفسير سورة آل عمران

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّارة

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى
شباط 2012 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة آل عمران

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سورة آل عمران مدنيّة أي نزلت بالمدينة المنوّرة، وسمّيت بذلك لورود قصة آل عمران فيها، فعمران والد مريم ومن ذرّيته جاء عيسى ابن مريم عليه السلام.

وهذه السورة تعالج عدة قضايا منها:

- تقرير وحدانية الله وعظمته في الكون.
- الحوار مع أهل الكتاب.
- بعض الإرشادات للمسلمين.
- غزوة أُحد وما فيها من دروس وعبر.

يبدأ الله هذ السورة بذكر وحدانيّته وبعض أسمائه الحسنى:

﴿ الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [الآيتان: ١، ٢] فالله سبحانه هو الحيّ الذي لا يدركه الفناء، وهو القيّوم الذي له الهيمنة والتدبير والقيام على شؤون الخلق - وتذكر السورة بأن الله شَهِدَ بنفسه على وحدانيّته واشترك معه بهذه الشهادة الملائكة والعلماء:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الآية: ١٨].

وأنّه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه يصوّر الخلق في الأرحام كيف يشاء، وأنه هو العزيز الحكيم، وأنه البصير بالعباد،

مالك الملك يُؤتي المُلك من يشــاء وينزع المُلك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

- أمّا الحوار مع أهل الكتاب فنراه في مطلع هذه الســورة، فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى الرسول محمد ﷺ في المدينة المنوّرة، ثم أقاموا فيها أيامًا يناظرون رسول الله محمدًا في شــأن عيسى عليه السلام، ورسول الله يردُّ عليهم بما يُوحي الله إليه وَنَزَلَ فيهم نيّفٌ وثمانون آية.

- كما ذكرت الســورة أن الله أنزل القرآن على رســوله محمد مصدّقًا لما بين يديه من كتب الله، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الآية: ٣] وأن على المســلم الإيمــان بجميع أنبياء الله ورسله من دون أدنى تفريق بينهم، وتؤكّد السورة أن رسالتهم جميعهم واحدة ألا وهي الإسلام الذي بَعَثَ الله به كل رسول.

- وفي هذه الســورة دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء تجمع بينهم وبين المســلمين قــال الله تعالــى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ [الآية: ٦٤].

- كما تُشبّه السورة خلق عيسى بخلق آدم وأنه ليس ابنًا لله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الآية: ٥٩].

- وفيها الحديث عمّا نذرته امرأة عمــران من أنها إذا رزقها الله ولدًا ذكرًا أن تجعله في خدمة بيت الله ولكنها رُزقت بأنثى وهي مريم، فتقبّلها الله وقام النبي زكريا بكفالتها وتنشئتها على الطهر والعفاف وعبادة الله.

- وفيها البشرى من الملائكة لمريم بأنها ستلد ابنًا عظيم الشأن عند الله،

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الآية: ٤٥]، ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الآية: ٤٨].

- وفي السورة تضرّع زكريا لربه بأن يرزقه ولدًا صالحًا يقوم بالدعوة إلى الله بعد وفاته، فاستجاب الله له ورزقه ولدًا صالحًا اسمه يحيى الذي خصّه الله بالنبوّة، على الرغم من كبر سنّه وامرأته العاقر.

- وفي الســورة دعوة المؤمنين لأن يتقوا الله حق تقاته وأن يتمسكوا بدينه وأن يُعدّوا جماعة منهم للدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الآيــة: ١٠٤]، وأن الســلف الصالح من أمة الإســلام قاموا بهذا الواجب فكانوا خير أمة أخرجت للناس كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [الآية: ١١٠]، فإذا حاد المسلمون عن هذا المنهج زالت الخيريّة عنهم.

- وفي الســورة بيان لأفضليّة البيت الحرام بمكة وأنــه أول بيت وُضِعَ لعبادة الله وحده وأن الحج إليه واجب على كل مسلم.

- وفيها الحديث عن غزوة أُحد التي أخذت حيّزًا كبيرًا من هذه الســورة بحيث يكشف الله فيها عن خفايا القلوب ونوازعها من إيمانٍ ونفاقٍ على ضوء ما جرى فيها من نصر وهزيمة، كما تعالج الأخطاء التي وقع فيها المسلمون وأدّت بهم إلى الهزيمة.

- وفيها دعــوة المؤمنين إلى الاعتبار بما أصابهم فــي أُحُد، ونهيهم عن الوهن واليأس، وأن ما أصابهــم من جراح قد أُصيب بمثلهــا أعداؤهم يوم غزوة بَدْر قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

* ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ(١) فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآيتان: ١٣٩، ١٤٠].

ـ وفي هذه السورة بيان أن الأعمار بيد الله وأنه لن تموت نفس إلّا بإذن الله فلا مجال للإنسان أن يحجم عن القتال دفاعًا عن وطنه وعرضه.

ـ وبيّنت السورة أنّ هزيمة المؤمنين في غزوة أُحد سببها تنازعهم وتطلّعهم للحصول على الغنائم ومخالفتهم وصية رسول الله لهم.

ـ وفيها مصير الشهداء الذي سقطوا صرعى في غزوة أُحد وما خصّهم الله من كرامة وأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

ـ وهذه السورة لم تذكر أحداث غزوة أُحد متتابعة بل تخللتها إشارة إلى معركة بدر وما جرى فيها من بطولات أوصلت المسلمين إلى نصر فريد من نوعه في تاريخ الأُمم، وكذلك النهي عن تعاطي الرِّبا لأنه يثير الضغائن في النفوس فلا يجعل القلوب صافية مترابطة لمواجهة العدو.

ـ كما دعت السورة إلى تقوى الله والإنفاق في سبيله وكظم الغيظ ممن يثيرون غضبهم والعفو عنهم، والتوبة عن تعاطي الفواحش والمنكرات.

ـ وأخيرًا نرى هذه السورة تثني على أصحاب العقول السليمة الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض فيؤدّي بهم ذلك إلى ترسيخ إيمانهم بالخالق وذكره على الدوام وطلب المغفرة منه.

هذه بعض محتويات هذه السورة نقتصر عليها خوفًا من التطويل، وهناك أُمور أُخرى نتركها للقارئ ليستفيد منها ويقتبس من هداها.

(١) قرح: جرح، والمراد: ما أصاب المسلمين من أذى وهزيمة وخسائر يوم غزوة أُحد.

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ
وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ
ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ
٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾

شرح المفردات

ٱلۡقَيُّومُ: القائم بذاته والحافظ لكل شيء، والمعطي له ما به قوامه.

ٱلۡفُرۡقَانَ: يُطلق على القرآن وعلى جميع الكتب السماوية، لأنها تفرّق بين الحق والباطل.

ذُو ٱنتِقَامٍ: ذو عقوبة شديدة لمن عصاه.

يُصَوِّرُكُمۡ: يخلقكم على ما شاء من هيئة.

ٱلۡأَرۡحَامِ: جمع رحم وهو مكان حمل الجنين في المرأة.

صفات الله وما اختص به سبحانه

مطلع هذه السورة فيه الكلام عن عقيدة الإسلام القائمة على وحدانية الله وفيه مناقشة النصارى في معتقداتهم.

فقد رُوي[1] أنَّ وفْدًا من نصارى نَجران قَدِموا على رسـول الله محمد ﷺ وكانوا ستّين نَفَرًا بينهم أربعة عشـر رجلًا من أشـرافهم، فدخلوا عليه في مسـجده في المدينة المنوّرة حين صلّى صلاة العصر، يقول بعض مَنْ رآهم: ما رأينا بعدهم وفـدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا يُصلّون في مسـجد رسول الله، فقال رسـول الله: دَعُوهُمْ، فصلّوا إلى المشرق. وهذا برهان واضح على سماحة الإسلام.

ثم جرت بينهم وبين رسـول الله ﷺ مُناظرة في شـأن عيسى عليه السلام فتارةً يقولون: إنَّ عيسى ابنُ الله، وتارةً هو اللهُ، وكان ما قاله رسول الله لهم:

أَلَسْتُم تعلمون أن ربَّنَا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسـى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال رسـول الله: أَلَسْـتُم تعلمون أن ربَّنَا قَيِّم على كُلِّ شـيء يحفظه وَيَرزُقُهُ؟ قالوا: بلى. قال رسـول الله: فَهَلْ يَمْلك عيسـى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال رسول الله: أَلَسْتُم تعلمون أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شـيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال رسـول الله: فَهَل يَعلم عيسى شـيئًا من ذلك إلّا ما عُلّم؟ قالوا: لا. قال رسول الله: فَإِنَّ رَبَّنا صَوَّرَ عيسى في الرَّحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: فكيف يكون عيسـى كما زعمتم؟ فعرفوا الحق ثم أبـوا إلّا جحودًا. هذا مختصر ما جرى بينهم وبين رسـول الله ﷺ، ثم أنـزل الله تعالى الآيات التالية:

(١) هذا ما ذكره المفسرون عن محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير.

﴿الٓمٓ[1] ۞ اللهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ اللهُ: اسمُ الله الأعظم لم يتسمّ به غيره، ولذلك لم يثنّ ولم يُجمع. فالله سبحانه هو الجامع للصفات الإلَهية، وهو الذي أنشـأ الخَلْق وربّاهـم، لا مالك لهذا الكون ومن فيه سـواه، فهو المتّصف بـكل كمال والمُنَزّه عن كل نقص ليس كمثله شـيء. ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي أن الألوهية خاصّة به سـبحانه دون سـواه لا شريك له في سلطانه ومُلْكِهِ، فهو سـبحانه ﴿ الْحَيُّ ﴾ أي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها، كما أنه سبحانه ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي القائم على كل شيء يحفظه ويرعاه ويرزقه.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: المراد به هنا القرآن، أي نزّل الله عليك يا محمد القرآن مقترنًا بالحق والصدق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أن القرآن مُصدّق لما قبله من الكتب السماوية وبما جاء فيها من الآداب ومكارم الأخلاق، ومُصَحِّحٌ لما طرأ عليها من تحريفات وبِدَع وخروج عن هُدَى الله.

﴿وَأَنـزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّـاسِ﴾ أي أن الله أنزل التـوراة والإنجيل من قبل نـزول القرآن لأجـل هداية الناس إلـى الطريق الصحيح الذي يوصلهم إلى سعادة الدُّنيا والآخرة ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ والمراد به هنا القرآن الكريم، وأعاد الله ذِكْرَ القرآن تشريفًا له، وسُمِّي القرآن بالفرقان لأنه يفرّق بين الحق والباطل، وقيل: المراد بالفرقان الكتب السماوية السابقة بما فيها القرآن بحيث أنزلها على رسـله لتفرّق بين الحق والباطل، وليسـير النَّاسُ على هدًى من ربهم وعلى الطريق المستقيم.

(١) الٓمٓ: قيل إن هذه الأحرف التي جاءت في مقدمة بعض سـور القرآن هي مما اسْـتأْثر اللهُ العلم بها، وقيل: إن هذه الأحرف ذُكرت للتحدّي وبيان إعْجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله مـع أنه مركب من هذه الحروف وغيرها التـي يتخاطبون بها، وقيل: إنَّ العرب لمّا سـمِعوا القرآن لغوا فيـه وانصرفوا عنه فأنزل الله هذه الأحـرف ليعجبوا منها، وليكون عجبهم سببًا لاستماعهم إلى ما يتلى عليهم من القرآن بعدها الذي تستهويهم آياته بما فيها من بلاغة وهُدًى. وقيل غير ذلك مما ذكرناه في مطلع سورة البقرة.

أما بشأن التوراة، فقد أشـار القرآن في عِدَّة مواضع إلى أن اليهود حرَّفوا كتاب الله وبدّلوه، فقد كان ما حَلَّ بأورشـليم في عهد بختنصر أولًا، ثم في عهد الرومان ثانيًا من خراب واضطهادات لأهلها سببًا في أنهم نَسُوا حظًّا ممّا دعاهم الله إليه، وعلى هذا فليست التوراة الحاضرة هي المذكورة في القرآن، وإن كان في التوراة بعض ما أنزل الله على موسـى كالوصايا العشر، وبعض الأحكام التي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل.

والإنجيل في القرآن هـو الكتاب الذي أنزله الله على عيسـى عليه السلام، وقد جاء لفـظ الإنجيل بصيغة المفرد كما في قولـه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ...﴾ [المائدة: ٤٦]، وفي قول الله تعالى مخاطبًا عيسـى عليه السلام كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] وهناك إشـارة إلى هذا الإنجيل بما جاء في رسـائل بُولُس وهي من الكتب المعتمدة عند النصارى.

فعيسـى عليه السلام جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل ولكن الناس على مرّ الزمان فقدوا ذلك الإنجيل وتمسَّـكوا بكتب تنسـب إلـى بعض الحواريين من أصحابه، وقد اشـتملت على سـيرته وصلبه وبعض أقوال المسيح عليه السلام. وقد كثرت الأناجيل بعد عيسـى عليه السلام ولكن الكنيسة أقرت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم.

﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي إن الذيـن جحدوا حجج الله والأدلة على توحيـده ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَـدِيدٌ﴾ لهم عذاب من الله شـديد يوم القيامة ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ والله سـبحانه هو القويّ الغالب على كل شيء، وهو ذو عقاب شديد لمن يكفر بآيات الله.

﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هذا الجزء

من الآية فيه بيان لِسِـعَة عِلْم الله بالكون، فالله سبحانه لا يغيب عن عِلْمِهِ شـيء، فهو العالِمُ بما كان وما سـيكون في الأرض وفي السـماء، وهو الخالق المبدع لهما، وهو مُطَّلع على من آمن ومن كفر، ومن كان شـأنه كذلك فقد وجب أن ينفرد وحده بالأُلوهيَّة، فلا يُشاركه في أُلوهيته ومُلكه أحَدٌ، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يُصَوِّركم: والتصوير جعل الشـيء على صورة لم يكـن عليها، والأرحام: جمـع رحم، وهي موضع نشـوء الجنين في بطن أُمِّه، فالله سـبحانه جعل نطفة الرجل بعد تلقيحها ببويضة الأنثى من نطفة إلى عَلَقَة إلى مُضْغَـة إلى عظام إلـى أن يصبـح الجنين إنسـانًا ذَكَرًا أو أُنثى، والله سبحانه صوّر عيسى وكوّنه في رحم أُمِّه كما كوّن سـائر الناس فكيف يكونُ إلَهًا من كانت هذه نشأته؟ وهاتان الفكرتان: عدم خفاء شيء على الله، وتصوير عيسى عليه السلام في رحم أمّه وردتا في المناقشة التي جرت بين النبي ﷺ وبين وَفْد نصارى نجران ﴿لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة هـي نفي للألوهيّة عند غير الله سـبحانه وحصْرٌ لها به وحده لا يشاركه في أُلوهيّته مشارك ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو سبحانه القويّ الغالب، ذو الحكمة البالغة في تدبير الكون وما فيه من سماوات وأرضين، وما فيهما من كائنات.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ
ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ
فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

شرح المفردات

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ: المحكمات من آيات القرآن ما عُرِفَ تأويلها وفُهِمَ معناها.

أُمُّ الْكِتَابِ: أي أصل القرآن الذي يُعَوَّلُ عليه في الأحكام.

مُتَشَابِهَاتٌ: محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها، أو ما أستأثر الله بعلمه.

زَيْغٌ: مَيْلٌ عن الحق إلى الباطل.

ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ: طلبًا لتفسيره.

الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: المتمكّنون منه المُتبحِّرون فيه، المتفقّهون في الدين.

يَذَّكَّرُ: يتّعظ.

أُولُوا الأَلْبَابِ: أصحاب العقول الخالصة من الشوائب.

لا تُزِغْ قُلُوبَنَا: لا تُمِلْها وتصرفها عن الحقّ.

مِنْ لَدُنْكَ: من عندك.

لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ: أي يوم القيامة لا شك في وقوعه.

آيات القرآن: محكمات ومتشابهات

وبعد أن ذَكَرَ الله سبحانه في ما سبق أنه أنزل التوراة والإنجيل والقرآن هدًى للناس، بيّن في الآيات التالية مراتب القرآن وخصائصه، قال الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الكتاب: المراد به القرآن، أي أن الله سبحانه هو الذي أنزل عليك القرآن يا محمد ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي أن آيات القرآن نوعان: نوع فيه آيات بيّنات واضحات الدلالة على معانيها لا التباس فيها ولا أشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وهذه الآيات المحكمات هي أصل القرآن المعتمد عليه في الأحكام، وهي عماده في بيان الحلال والحرام ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ومن القرآن آيات أُخرى متشابهة، لأنها مما أستأثر الله بعِلْمِهِ دون سائر خلقه[1].

وهناك أقوالٌ أُخرى للمفسرين في تحديد معنى المحكم والمتشابه من آيات القرآن، نذكر بعضها في ما يلي:

المحكم: هو الذي لا يحتمل تأويله إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه هو الذي يحتمل وجوهًا عدّة.

ومنها: أن المحكمات من آيات القرآن هي المعمول بها، وهي الناسخات، والمتشابهات: هي الآيات التي تُرِكَ العمل بها وهي الآيات المنسوخة.

ومنها: أنَّ المحكم من الآيات ما كان دليله واضحًا، والمتشابه ما يخفى دليله إلا على الراسخين في العلم.

ومنها: أن الآيات المحكمات هي التي تكون واضحة الدلالة على

---

(١) ومما أستأثر الله بعلمه: حلول ساعة القيامة، وحقيقة الروح، والحروف المقطعة في أوائل سور القرآن وغير ذلك.

معانيها، والمتشابهات هي غير واضحة الدلالة على معانيها بل يحتاج تأويلها إلى الرجوع إلى غيرها من الآيات.

ومنها: أن المحكم هو ما يجب الإيمان به والعمل به، والمتشابه ما يجب الإيمان به من غير تكليف بعمل.

وقد ذكر المفسرون أمثلة على المتشابه، منها: قوله تعالى عن ذاته العَلِيّة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ومنها قوله سبحانه ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠]، فهاتان الآيتان يخالف ظاهر اللفظ فيهما المعنى المراد، لأن الله سبحانه وصف ذاته بقوله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى هذا فسّر العلماء ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ بقدرته ونصرته للمؤمنين. وقد سُئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجِبٌ، والسؤال عنه بِدْعَة.

ويُتابع القرآن قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ والزَّيْغُ: هو المَيْلُ عن الاستقامة، فالذين في قلوبهم زَيْغٌ هم المائلون عن الحق إلى الأهواء الباطلة، لأنهم يتّبعون ما تشابه من القرآن حيث يجدون فيه ما يتفق مع اعوجاج نفوسهم رغبة في صَرْفِ الناس عن دين الإسلام، وإثارة الريبة في أحكامه ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلبًا لتفسيره بمعانٍ توافق مذاهبهم الباطلة المبتدعة كما فعل القاديانية والبهائية وغيرهما من الفِرَق التي أنشأها دُعاتها لتحقيق مطامعهم ولشقّ وحدة المسلمين ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ في حين أن هذه المتشابهات لا يعلم تفسيرها إلا الله كما يعلمها الراسخون في العلم المتمكنون منه.

وهناك احتمال آخر في التفسير بأن يكون النص القرآنيّ قد تم عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ أي أن العِلْم بتفسير الآيات المتشابهة

محصور بالله وحده، وما جاء بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استئناف لكلام جديد، أي أن الراسخين في العِلْمِ يؤمنون بها كما هي و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي أن كلًّا من المحكم والمتشابه هو من كلام الله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي وما يتّعظ بآيات القرآن إلّا أصحاب العقول السليمة الخالصة من الشوائب التي لا تتأثر بالأهواء.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا ما يتضرّع به الراسخون في العلم إلى ربهم بأن لا يُميل قلوبهم عن الاستقامة وأن يساعدهم على عدم الانحراف عن الحقّ بعد أن تفضّل عليهم بالهداية للإيمان بمحكم آياته وبالمتشابه منها معًا، ويحتمل أن يكون هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ تعليمًا من الله للمؤمنين بأن يدعوا به في مراحل حياتهم ليجنّبهم الله ما يعتريهم من فِتَنٍ وإغراءات وأهواء تُبعدهم عن منهجه.

والله سبحانه لا يُزيغ قلوب عباده عن طريق الحق إلا عندما ينحرفون عن هدى الله ويميلون إلى سبل الضلالة، وهذا ما أعلنه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

كما يدعو الراسخون في العلم ربهم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي وامنحنا يا رب من عندك رحمة وتوفيقًا وثباتًا على الحق، والرحمة تشمل أن تحصل في جوارحهم دواعي الطاعة والعبوديّة لله، وأن يحصل لهم سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية من الرزق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ هنا تأكيد للرحمة التي يطلبونها من الله بعدة مؤكدات وهي: لفظ إنّ وهو حرف توكيد، ومنها: الضمير العائد إلى الله بقوله ﴿أَنْتَ﴾، ومنها: التعبير بصيغة المبالغة وهي لفظ ﴿الْوَهَّابُ﴾ أي كثير الهبات، فالله سبحانه هو المتفضّل برحمته على من يشاء من عباده.

ويتابع الراسخون في العلم دعاءهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي يا ربنا إنَّك تجمع الناس للجزاء على أعمالهم يوم القيامة الذي لا شك في وقوعه ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إنَّك يا رب لا تُخلف وَعْدَكَ للمؤمنين بالثواب، وللكافرين بالعقاب، فمن انحرف قلبه عن هداك فهو في العذاب الذي أعددته له، ومن سار على هديك فهو من أهل النعيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ
اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)
قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ
الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ
وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ (١٣)﴾

شرح المفردات

لَنْ تُغْنِيَ: لن تنفع أو لن تدفع.

كَدَأْبِ: كعادة.

فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ: أي فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم.

تُحْشَرُونَ: تُجْمَعُون.

الْمِهَادُ: الفراش.

آيَةٌ: علامة وعبرة.

فِئَتَيْنِ: طائفتين.

لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ: لَعِظَة لذوي العقول ولمن أبصرهم.

مصير الكافرين في الدُّنيا والآخرة

ويُتابع القرآن فَيُحذِّر الكافرين المعرضين عن هدى الله بما أُعِدَّ لهم من العذاب في الدُّنيا وسوء المصير في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أي إن الذين جحدوا الحق وأنكروا نُبُوَّة محمد سواء أكانوا من أهل الكتاب أم كانوا من مشركي العرب لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله، سواءٌ أنزل الله هذا العذاب بهم عاجلًا في الدُّنيا أو أَخَّرَهُ إلى يوم القيامة، وهذا ردٌّ على ما قاله مشركو العرب بما ذكره القرآن ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ثم يُبيّن الله نوع هذا العذاب لهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي إنَّ عذابهم يكون بأن تصبح أجسادهم وقودًا لنار جهنم، وليس من عذابٍ أشد من ذلك ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي حال هؤلاء في الكفر في استحقاق العذاب كحال آل فرعون وهم أعوانه وبطانته، كما هو شأن من كان قَبْلَهُم من كفار الأمم الماضية كقوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذَّبوا بالمعجزات والأدلة التي تُثبت صِدق الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتهم، وكذَّبوا بما جاءوا به من عند الله، فكانت النتيجة كما ذكرها الله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، والأَخْذُ بالذنب هو العقاب عليه ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والله سبحانه عقابه شديد لمن كَفَرَ به وكذَّب رُسُلَه بعد قيام الحجة عليه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ قل يا محمد للكفار ستحلّ بكم الهزيمة وسينتصر عليكم المؤمنون، وستُجمعون يوم القيامة للحساب، وتُساقون بعدها إلى جهنّم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ والمهاد هو الفراش اللين المريح، وهذا التعبير فيه تهكُّم وإذلال لهم، إذ هل في جهنم التي يُعذّبون بنارها فراش مريح لهم؟ والخطاب هنا موجَّهٌ إلى كفار مكة كما هو موجّه إلى اليهود الذين كانوا في جزيرة العرب.

وقد روي أنه لمّا تغلّب رسول الله على قريش في معركة بدر ورجع إلى المدينة المنوّرة جَمَعَ اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يُصيبكم الله بما أصاب قريشًا، فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنَّك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا[1] لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس، وأنك لم تَلْقَ مِثْلنا فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله في الآية التالية: ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وبعد فترة قصيرة من هذا الوعد الإلَهي بانتصار المسلمين، سار رسول الله بجُنْده إلى يهود بني قينقاع، فحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة حتى استسلموا له، فأمر رسول الله ﷺ بإجلائهم عن المدينة المنوّرة، فساروا إلى بلدة أذْرعات بالشام.

كما انتصر رسول الله على كل من ناوأه من العرب، أما بقية اليهود فحاربهم رسول الله بعد أن غَدَروا به، فقتل بعضهم وأجْلاهم جميعهم عن جزيرة العرب حتى لم يبق فيها أحد.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ إنَّ هذا الوعد من الله لرسوله ﷺ بالنصر وتحققه بعد زمن قصير لهو من أقوى الأدلة على أن القرآن وحي إلَهي إذ لا يعلم الغيب إلا الله.

(١) الأغمار: الجهلاء الذين لم يجرّبوا الأمور.

التذكير بمعركة بدر

ثم يلفت الله الأنظار إلى ما جرى في معركة بدر بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ أي لقد كان لكم علامة وعبرة على أنَّ الله معزّ دينه وناصر رسوله محمدًا، وهذه العبرة تتمثَّلُ في جماعتين الْتحمتا في القتال يوم معركة بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ أي جماعة مسلمة تُقاتل في سبيل الله ونُصرة دينه وكان عددها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا مع قلّة في السلاح، وجماعةٌ كافرة وهم المشركون من قريش وكان عددهم تسعمئة وخمسين رجلًا مدجّجين بالسلاح ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي الفئة المسلمة رأت المشركين ضعف عدد المسلمين أي ستمئة وأزْيَد، وقد قلّل الله عدد المشركين المقاتلين في نظر المسلمين ليجترئوا على قتالهم ولا يهابوهم، وقد وعد الله المسلمين بالنصر في حال كون عدد عدوهم ضعف عددهم حيث قال الله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] وقد تُفَسَّر الآية بأن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مِثْلَيْ عدد الكافرين، وقد كان عدد الكافرين تسعمئة وخمسين مقاتلًا، فكان عدد المسلمين في نظرهم ألفًا وتسعمئة، وإنما أراهم الله ذلك ليهابوهم وليدخل الرُّعب في قلوبهم، وكان ذلك مددًا معنويًّا من الله للمؤمنين، كما أمدّهم الله بالملائكة بصورة آدميين ليقاتلوا معهم وبذلك انتصر المسلمون ﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أن النصر منوطٌ بإرادة الله وليس بالكثرة العددية وكثرة السلاح، وإنما بمقدار الإيمان بالله وطاعته والثقة به وما ينشأ عن ذلك من قوة معنويّة للمحارب تساعد على النصر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي إن في غلبة الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة لَعِظة لذوي العقول السليمة القابلة للاعتبار بأن النصر من عند الله.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ
ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ
وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ
ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ
مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ
وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧ ﴾

شرح المفردات

زُيِّنَ: حُسِّنَ.
القَناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ: المال الكثير.
الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ: الراعية في المرعى أو الخيل الحسان.
الأنْعام: الإبل والبقر والغنم.
الحَرْث: الزَّرع.
مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا: ما يُتمتع به في الدنيا زمنًا قليلًا.
المَآب: المرجع.
القَانِتِينَ: الطائعين لله الخاضعين له.
الأَسْحَار: جمع سَحَر، وهو آخر الليل قُبيل الفجر.

شهوات الدنيا والحرص عليها

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أن الاستغراق في ملذّات الحياة ومشتهياتها والاندفاع في تحصيلها، من دون التمسُّك بالقِيَم الروحيَّة يُبعدان الإنسان عن ربّه ويؤدّيان به إلى الخسران، قال الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ أي حُسِّن للناس حُبُّ الشهوات، والشهوات: جمع شهوة، وهي لذّات النفس ورغباتها فيما تُحبه وتُريده.

ولكن مَنِ المُزَيِّن للشهوات والمحسّن لها؟ قيل: هو الله سبحانه للابتلاء والاختبار، والإسلام لا يمنع مِنَ الميل إلى الشهوات في حدود الاعتدال والحق، ولكن يمنع من المبالغة فيها بحيث تطغى على كل صفات الخير في الإنسان بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ثم ذَكَرَ القرآن الشهوات التي يميل إليها الإنسان وأولها: **النِّساء**، وهنّ أكثر ما يرغب فيه الرجال لما أَوْدَعَ الله فيهم من غريزة جنسيّة، ولِمَا خصَّ الله به النساء من جمال وجاذبية وإغراء، والرسول محمد ﷺ اعترف بهذه الرغبة الطبيعية إلى النساء فقال: «حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث: الطيب، والنِّساء، وجُعِلَتْ قُرَّة عَيْني في الصّلاة»[1]. وليست الشهوات مقتصرة على الرجال فالنساء يشاركنهم في شهوة الجنس، وهذه الرغبة المتبادلة بين الرجال والنساء جعلها الله لبقاء النوع الإنسانيّ عن طريق الزواج الشرعي الذي يحيطه الحب والرحمة. وحُبُّ النساء ليس شرًّا، وإنما الشرّ في إقامة علاقات معهن غير شرعية كالزنا الذي يغضب الرب، وما ينشأ عنه من أضرار اجتماعية وفردية، والوقوع في حبائل

(١) أخرجه الإمام أحمد.

النساء الساقطات اللاتي يستنزفن من الرجال أموالهم وصحتهم، ويقضين على ما ينتظرهم من مستقبل زاهر، ولقد حذَّر النبي ﷺ من هذا الصنف من النساء بقوله: «ما تَرَكْتُ بعدي فِتْنَةً أضرَّ على الرِّجالِ من النِّساء»(١).

وإذا كان في المجتمع نساء يتمثَّل فيهن الشرّ فهناك صِنْفٌ من النساء يكُنّ سبب سعادة الإنسان، وفي هذا يقول النبي محمد ﷺ: «الدُّنيا مَتاعٌ، وخير متاعها المرأة الصالحة: إنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإنْ أمَرَها أطاعته، وإن غاب عنها حَفِظَتْهُ في نفسها وَمَالِهِ»(٢).

والبنين: ثم يأتي بعد النساء من الشهوات التي ذكرتها الآية: حُبُ البنين، فهن فلذات الأكباد، وقرّة أعين الوالدَيْن، فقد أوْدَعَ الله في الوالدَيْن شعورًا وجدانيًا بأن الولد قطعة منهما، وصدق القائل:

إنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

والأولاد لهم وَقْعٌ جميل أخّاذ في نفوس والديهم، وبالأخص في طفولتهم لبراءتهم، ولما يصدر عنهم من تَصَرُّفات وحركات محبّبة إلى النفوس، ونطق رائع يأخذ بمجامع القلوب، وَصَدَقَ الله إذ قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما أن الأبناء هم أمل والديهم في المستقبل لتقديم العون لهم عندما يبلغون سِنّ العجز والشيخوخة.

ويُتابع القرآن ذكر الشهوات المحبّبة إلى النفوس: ﴿**وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ والقناطير: جمع قِنْطار، وهو المال الكثير، وقد قيل: القنطار عند العرب هو وزن لا يحد، و﴿**الْمُقَنْطَرَةِ**﴾ تعبير للمبالغة في كثرة المال كما يقال: ألوف مُؤَلَّفة، وقيل: ﴿**الْمُقَنْطَرَةِ**﴾ بمعنى المضاعفة.

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

وقد أسرف بعض الناس في حُبّهم للمال حتى أصبح معبودهم وهمّهم الوحيد في الدُّنيا، يسعون إلى جمعه وتكديسه من أي طريقٍ كانت شريفة أو مذمومة، وسواء كان الكسب حلالًا أو حرامًا، وحُبُّهم للمال جعلهم يَبْخلون به ولا يُنفقون منه إلا بشقّ الأنفس، وهذا ما سبَّب لهم الشقاء بدلًا من السعادة، وصَدَقَ النبي محمد ﷺ حينما قال: «لو كان لابنِ آدَمَ واديان مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى ثالثًا، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدم إلّا التراب»(١).

وطلب المال ليس شرًا مطلقًا، بل قد يكون خيرًا لِسَدِّ العَوَزِ والإنفاق على الأهل ووجوه البرِّ. ثم تذكر الآية بقية الشهوات: ﴿**وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾.

﴿**وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**﴾: وهي الخيل المتناهية في الحُسْنِ، وقيل: هي التي ترعى في الأودية، وقيل: هي المرسلة وعليها راكبوها.

والخيل كانت وما زالت محبّبة إلى كثير من الناس يتنافسون في اقتنائها على الرغم من اختراع صنوف المركوبات، كما أن الخيل كانت قديمًا أداةً من الأدوات التي يعتمد عليها الجنود في قتالهم للأعداء.

﴿**وَالْأَنْعَامِ**﴾: وهي الإبل والبقر والغنم لأن الإنسان في حاجة شديدة إليها لطعامه وملبسه وسَفَرِه بواسطة الإبل التي كان الناس قديمًا يعتمدون عليها في أسفارهم. هذا وإن للأنعام منظرًا خلّابًا وهي ترعى في الجبال والسهول لكل من يتأملها.

﴿**وَالْحَرْثِ**﴾: هو الزرع سواء أكان حبوبًا أم بقلًا أم شجرًا مثمرًا، وإنه لمنظر يبعث المتعة للعين، والسرور في القلب، أن ترى أمامك على مَدّ النظر

(١) رواه البخاري ومسلم.

سهولًا تموج بالزروع المختلفة وتكتسي بالأشجار المثمرة المتنوعة، ينتظر أهلها أوان قطافها ليجنوا منها رزقًا حسنًا وغلالًا وافرة.

ثم ختم الله هذه المشتهيات المذكورة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمتاع: ما يتمتع به الإنسان، ومُتَعُ الحياة الدُّنيا مهما كثرت وتلذَّذ بها الإنسان فهي إلى زوال ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والمآب: المَرْجِع، والمرْجِع الحسن عند الله هو نعيم الجنَّة.

وبعد أن ذَكَرَ الله سبحانه شهوات الدنيا التي لا تدوم، ذَكَر مُقابلها سعادة الآخرة الدائمة التي هي خير من شهوات الدُّنيا الزائلة والتي خَصَّها الله لعباده الصالحين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي قُل يا محمد لهؤلاء الذين استحوذت عليهم شهوات الدُّنيا: أَأُخبركم بخيرٍ وأفضل لكم من متاع الدُّنيا وشهواتها؟ أن تتَّقوا ربّكم بالخوف منه وتطيعوه بأداء فرائضه وأجتناب معاصيه فتنالوا في الآخرة جنَّات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في نعيمها الذي لا يزول، لا يشوبكم كدر بخلاف المنعَّمين في الدُّنيا، فإن نعيمهم إلى زوال ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي وللمتقين أيضًا في هذه الجنان زوجاتٌ مُطَهَّراتٌ من الأدناس الحِسِّية والخلقيّة وبذلك يحصل بهن الأُنس والسعادة، ولهم فوق ذلك ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فلا يسخط الله عليهم بعد ذلك أبدًا، ورضاء الله هو أعظم النعم وأجلّها. وقد جاء في الحديث النبوي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة يوم القيامة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعدَيْك، فيقول: هَلْ رَضِيتُم؟ فيقولون: وما لَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا ربّنا، وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول الله سبحانه: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسخَطُ عليكم بعده أبدًا»[1].

---

(١) متفق عليه.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي أنه سبحانه عليم بأحوال عباده، فلا يخفى عليه شيء من أفعالهم، وسيكافئهم على حسناتهم، ويعاقبهم على سيئاتهم.

ويتابع القرآن فيذكر صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي إننا صَدَّقنا بك يا رب، وإنك الواحد الذي لا شريك لك، وصدَّقنا برسولك محمد والرسل الذين كانوا قبله بكل ما جاءوا به من عندك من الهُدَى، فاستر ذنوبنا بعفوك ولا تعذبنا بها، وجنِّبنا عذاب النار يوم القيامة التي أعددتها للظالمين من عبادك.

ثم عدَّد الله بعض صفات المتقين الذين نالوا سعادة الآخرة وهم: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾: هم الذين صبروا على الفقر والشدّة، وصبروا على ما ينال الجسم من مرض، وصبروا على أداء الطاعات وترك المعاصي ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: وهم الذين صَدَقوا في أقوالهم ومعاملاتهم مع الناس، وَصَدَقوا في ما عاهدوا الله عليه، والصدق هو الذي يبثّ الثقة بين أفراد الأمّة. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: وهم المُطيعون لله والمُقِرُّون له بالعبودية ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: أي المنفقين أموالهم سواء في الزكاة التي أوجبها الله عليهم أو المنفقين على ذَوِيهم وأرحامهم وفي سبيل الله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ والأسحار: جمع السَّحَر، وهو الوقت الذي يكون قُبَيْل الفجر، وخصَّ الله وقت السحر بطلب المغفرة منه لأن النفوس في هذا الوقت تكون أصفى وأهدأ، لأنها تكون بعيدة عن ضوضاء الحياة ومشاغلها بحيث يستحضر الإنسان ما اقترف من ذنوب وآثام فيندم عليها ويطلب من الله العفو عنها. ومن المفسرين من ذهب إلى أن الاستغفار هنا هو الصلاة في الأسحار.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

شرح المفردات

قَائِمًا بِالْقِسْطِ: أي أن الله قائم بالعدل في تدبير الكون.

أُوتُوا الْكِتَابَ: هم اليهود والنصارى الذين أُعطوا التوراة والإنجيل.

بَغْيًا بَيْنَهُمْ: ظُلمًا وحسدًا قائمًا فيهم.

الكون يشهد بوحدانية الله

وبعد أن أثنى الله على المؤمنين فيما سبق عندما قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بَيَّنَ الله سبحانه بعد ذلك أن الدلائل على وجوده ووحدانيته في هذا الكـــون ظاهرة لا مجال للريب فيها، قال الله تعالى: ﴿شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيَّن الله وأعلم عباده بأنه هو الإلَه الحقّ ولا إلَه في الكون ســواه. وشــهادة الله على وحدانيته مراد بها بأنه خلق الكون وجعله دليلًا على وحدانيته، وذلك واضح للمُتأمِّل في دقَّة النّظام الســائد فيه بحيث لم يطرأ عليه خلل ولا فساد منذ أن خلقه الله، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] والضمير في ﴿فِيهِمَآ﴾ يرجع إلى السّماوات والأرض كما هو مذكور في الآية.

وجاء في القرآن في هذا المعنى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وبعد شهادة الله على نفسه بوحدانيته، أتبع ذلك بشهادة ملائكته وأصحاب العلم بقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَـةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ فالملائكة هم أصفى مخلوقات الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وشهادة الملائكة بوحدانيته لم تكن حاصلة من النظر في الأدلة على ذلك كالبشـر، وإنّما حصل علمهم من التجلّي الإلَهي عليهم، وما انكشف لهم من عظمته وجلاله وقدسيّته.

وكذلك شــهد بوحدانيّة الله أهل العلم المتخصّصــون في كل مجال من مجالات الحياة، وفــي ذلك فضيلة لأهل العلم وإشــادة بعلوّ منزلتهم حيث قَرَنَهم الله بنفسه وملائكته في الشــهادة بوحدانيَّته، لأنهم بما أُوتوا من النظر العميق والتحقيق الدقيق يقفون على أســرار الإبداع الإلَهي فيما خلق وأبدع بما لا يظهر لغيرهم، ولهذا نرى أنَّ الله أثنى عليهم في موضع آخر من القرآن حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فالله ســبحانه شَــهِدَ على نفســه وشَــهِدَ معه الملائكة وأُولو العلم بأنه قائم بالعدل في تدبير أمر خلْقِهِ فيما قسَّم بينهم من الأرزاق والآجال وحكم بينهم بالثواب والعقاب، وأنه انفرد بالألوهيّة لا إلَه غيره، وأنه ســبحانه هو القويّ الغالب لا يُنازعه في مُلكه أحد، وأنه ســبحانه الحكيم الذي يَضَعُ كل شيء في موضعه الصحيح عن علم وحكمة وتدبير.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْـلَامُ﴾ هذه الجملة مستأنفة مؤكّدة للجملة التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿شَــهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْــطِ﴾ فإنْ قُلْتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته إن قوله تعالى

﴿لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو توحيدٌ لله، وقوله ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ هو وصفه بالعدالة، فإذا أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ فقد أخبر أنَّ الإسلام هو العدل وتوحيد الله، لذا نرى القرآن يجعل الإسلام في مقابل الشرك بالله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

ومعنى ﴿الدِّين﴾ الطاعة والجزاء، ويُطلق على الملّة وعلى مجموع العقائد والأعمال التي يبلّغها كل رسول من عند الله إلى قومه، ويبشّر القائمين بها بالنعيم في الآخرة، وينذر المعرضين عنها بعذاب الله الشديد. والدِّين المرضيّ عنه عند الله هو الإسلام كما جاء في القرآن: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والإسلام في اللغة يأتي بمعانٍ ثلاثة: (الأول) هو الانقياد والمتابعة، (والثاني) بمعنى الصُّلح والأمان، (والثالث) بمعنى الإخلاص لله في العبادة.

فالإسلام هو الانقياد لله واتّباع ما أنزل الله على رسوله محمد من الشرائع والأحكام، جاء في القرآن: ﴿...قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

كما أن الإسلام هو الإخلاص لله في العبادة، من قولهم: سلم الشيء لفلان أي خلُص له، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ويأتي الإسلام بمعنى الصلح والسلامة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والإسلام على تلك المعاني التي سبق ذِكرُها يتناول جميع الملل التي

جاء بها الأنبياء، فكل الأنبياء في نَظَرِ القرآن هم مسلمون، وكلهم بُعثوا بالإسلام، وكلهم كانوا مُوَحِّدِين لله تعالى كما جاء في القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، غير أن الشرائع تختلف بحسب تطور الأُمم في مختلف العصور كما جاء في القرآن ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وبعد هذا الاستطراد نذكر بقية الآية:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي أن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اختلفوا في كون محمد ﷺ نبيًّا بعد أن عَلِموا بأن ما جاء به محمد من الدِّين هو الحق الذي لا باطل معه، وبعد بيان صِفَته ونبوّته في كتبهم التي تنطبق عليه، كما اختلف الذين أُعطوا الإنجيل في أمر عيسى من بعد ما جاءهم العِلْمُ بأن الله واحدٌ، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كما اختلف أهل الكتاب فيما بينهم فقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، كما افترقت كل طائفة فيما بينهم فِرَقًا متعدّدة كل فرقة تحسب أنها على حقّ وتكفّر الأُخرى، وسبب هذا الخلاف بيّنه الله بقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا، وظلمًا، وطلبًا للرِّياسة، وتعدّيًا بعضهم على بعض ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ومن يجحد بآيات الله فلينتظر حساب الله السريع، وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ
ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ
﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟
لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

شرح المفردات

حَاجُّوكَ: جادلوك ونازعوك الحجة.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله: أخلصت ذاتي لله تعالى.

الأُمِّيِّينَ: المراد بهم من لا يكتبون ولا يقرأون من مشركي العرب.

أَأَسْلَمْتُمْ: هل دخلتم في الإسلام وأفردتم الله وحده بالعبادة.

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ : أي ليس عليك يا محمد إلّا تبليغ رسالة ربك، ولن يضرّك كفرهم.

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ: يأمرون بالعدل.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم فلا ثواب لها.

أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ: هم أحبار اليهود الذين عندهم قسم من التوراة.

يَتَوَلَّى: يُعرض.

وَغَرَّهُمْ : وخدعهم.

يَفْتَرُونَ: يكذبون.

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ: ولاقت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر.

الخضوع لله والإخلاص له

وبعد أن ذكر الله أسباب الاختلاف الذي حصل بين أهل الكتاب، أمر الله رسوله محمدًا بأن يدعوهم إلى الإسلام لأن فيه الهداية لهم مما هم عليه من ضلال، مُحذِّرًا إيّاهم من السير على خطى أسلافهم الذين كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله، قال تعالى:

﴿فَـإِنْ حَاجُّوكَ﴾(١) فإن جادلـك يا محمد اليهود والنصـارى في الدِّين بعد أن أقمـت الحجج على بطـلان مزاعمهم **﴿فَقُـلْ أَسْـلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾** فقل يـا محمد لهم: أخلصتُ ذاتي لله وخضعـتُ له، فلا أعبدُ غيره، ولا أتوقّع الخير إلّا منه، ولا أُشـرك به غيـره، وكذلك من اتبعني من المؤمنيـن فقد أسـلم وجهه لله وخضع لـه، وعبّر القرآن عن ذات الإنسـان بالوجه لأنه أكرم جوارح بنـي آدم وبه غالبية الحواسّ **﴿وَقُـلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾** وقل يا محمد للذين أُعطوا التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى، وللأميّين وهم مشـركو العرب الذين عُرفوا بهذا الوصف، لأن الأميّة كانت تغلب عليهم، قـل يا محمد لهؤلاء جميعًا: **﴿ءَأَسْـلَمْتُمْ﴾** أي هل خضعتم لله وأخلصتم له العبادة؟ والاسـتفهام هنا في معرض التقرير

(١) حاجّوك: المحاجّة هي أن يطلب كل واحد أن يردّ الآخر عن حجته.

والمقصود منه الحضُّ على الدخول في الإسلام ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فإن دخلوا في الإسلام فقد حصلت لهم الهداية إلى الدِّين الحق ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وإن أعرضوا عن الدخول في الإسلام فما عليك يا محمد إلّا إبلاغهم رسالة ربك وليس عليك إرغامهم على الإسلام ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي وهو سبحانه بصير بسلوك العباد لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

جزاء قتل الأنبياء

ثم ينذر القرآن الذين يجحدون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي إنَّ الذين يجحدون حجج الله الدالة على وحدانيّته، ويجحدون نبوَّة محمد وما أُنزل عليه من آيات القرآن الكريم ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم اليهود الذين كانوا يقتلون أنبياءهم الذين يدعونهم إلى الهدى، فقد قتلوا من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام كما قتلوا الكثير من أنبياء الله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فهو معدود عليهم بإقرارهم قتله، وإن كانوا كاذبين في زعمهم إذ نجَّاه الله وَرَفَعَه إليه.

وإنَّ وَصْفَ الله قتلهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هو للمبالغة في وصف إجرامهم والاستنكار على قتلهم الأنبياء، مع أن قتلهم لا يمكن أن يكون بحقّ أبدًا، لأن الأنبياء لا يرتكبون المنكرات إذ هم معصومون عن اقترافها.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ كما أنهم كانوا يقتلون الذين يأمرونهم بالعدل فيما أمر الله به ونهى عنه من أتْباع الأنبياء ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فأخبرهم يا محمد أن لهم عند الله عذابًا ألمه شديد، والتبشير يقال للخبر السارّ وهنا يستعمل الله البشارة بالعذاب على سبيل السخرية بهم والإنذار لهم بسبب أفعالهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أُولئك المتصفون بتلك الصفات الشنيعة بطلت أعمالهم في الدنيا وخلت من الثمرة التي كانوا يؤملون من ورائها فلم ينالوا ثناءً ومدحًا من الناس بل ذمًّا واستهجانًا لأعمالهم وأما في الآخرة فسيعاقبون ويُلعنون جزاءً لهم على أعمالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي وليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله وينقذهم منه. وفي هذا تحذير لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ من السّير على طريقة أسلافهم في الإجرام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ انظر يا محمد وتعجَّب من حال هؤلاء اليهود الذين يحفظون بعض ما جاء في التوراة، فما عند اليهود هو جزء منها وليس كلَّها، وهذا الجزء دَخَلَهُ التحريف والتبديل لأن التوراة كُتِبت بعد موسى بخمسمئة سنة وبقي في هذا الجزء البشارة بمجيء محمد وبعض الأحكام الشرعية ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي أن النبيَّ محمدًا كان يدعو اليهود إلى الرجوع إلى كتابهم التوراة ليحكم بينهم في ما تنازعوا فيه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ التولِّي: هو الإعراض وقد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ والحال أنهم معرضون عن الاستجابة لحكم التوراة، فإن قيل: التَّوَلِّي هو الإعراض فما فائدة تكراره؟ أُجيب عن ذلك بأنه للتأكيد، وقيل: يتولون بأبدانهم ويُعرضون عن الحقّ بقلوبهم.

هذه الآية نزلت بسبب هو أن رسول الله محمدًا ﷺ دخل بيت المِدْراس[1] على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله، فقال له نُعَيم بن عَمْرو، والحارث ابن زيد: على أيّ دِينٍ أنت يا محمد؟ فقال رسول الله: إني على مِلَّةِ إبراهيم، فقالا: فإنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، فقال رسول الله: فهلمّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا فنزلت الآية:

(١) المدراس: مكان تدارس اليهود للتوراة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ أي ذلك الإعراض من اليهود عن الاستجابة لكتاب الله هو بسبب زعمهم أنهم لن يصيبهم عذاب النار في الآخرة لعصيانهم لله إلّا أيامًا معدودات، والمراد بها أيام عبادتهم للعجل في غيبة موسى لتلقي ألواح التوراة من ربّه، أو لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه **﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾** وأطمعهم في دينهم وخداعهم ذلك الغرور الباطل وما كانوا يختلقون من الكذب من أنهم لن يُعذَّبوا في الآخرة على جرائمهم إلّا أيامًا قليلة. ويُفهم من هذا أن كل من يستخفّ بِوَعيد الله على عصيانه إيّاه وينغمس في المعاصي والمنكرات زاعمًا أنّ الله لن يعذّبه على سيئاته اتكالًا على شفاعة الشافعين من الأنبياء والصالحين، وعلى عفو الله ومغفرته، غير تائبٍ من ذنوبه، فإنّه بذلك يكون من الخاسرين في الآخرة.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ في الكلام هنا حَذْفٌ تقديره: فكيف يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وأعرضوا عن كتاب الله، إذا جمعهم الله يوم القيامة، يوم الجزاء على أعمالهم، وهذا اليوم **﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾** أي لا شك فيه، قال الله ذلك للتأكيد على حصول هذا اليوم لأن من اليهود وغيرهم طائفة تنكر البعث **﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾** وأُعطيت كُلُّ نفسٍ جزاء ما عملته في الدنيا من خَيرٍ أو شرّ **﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾** أي لا يبخس المحسن من ثوابه، ولا يُعاقَب المسيء بغير جُرمه.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾

شرح المفردات

المُلْك: المراد به هنا الحكم والتصرّف المطلق في أمور الناس.

تُؤْتِي: تُعْطي.

تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ: أيْ تكوّن الأحياء من المواد التي لا حياة فيها كالهواء والماء والغذاء والتراب.

عظمة القدرة الإلَهية

ثم تنتقل بنا آيات القرآن إلى وصف قدرة الله العظيمة في أحوال الأمم والناس وفي بعض المظاهر الكونيّة التي تتكرر كل يوم. وفي بيان القدرة الإلَهية ما روي أن الرسول محمدًا وعد أمته حين افتتح مكة مُلك فارس والروم فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد مُلك فارس والروم وهم أعزّ وأمنع من ذلك؟ ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى يطمع في مُلك فارس والروم؟ فأنزل الله قوله على رسوله محمد ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي قل يا محمد: يا الله أنت مالك المُلْك على الإطلاق مُلكًا حقيقيًا تتصرف فيه كما تشاء، إيجادًا، وإحياءً، وإماتةً وتعذيبًا

وإثابةً، من غير شريك لك ولا ممانع، فأنت يا ألله مالك السماوات والأرض، ومالك جميع الناس وما ملكوا، وأنت مالكهم في الدنيا كما أنت مالكهم في الآخرة حين تبعثهم من قبورهم أحياء، وحين ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه كل من في الأرض ومن في السماء ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تعطي المُلك من تشاء من عبادك فتملّكه وتسلّطه على من تشاء ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ وتزيل المُلك مِمَّن تشاء من عبادك ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بإعطائه المُلك والسلطان وبسط القدرة له ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بنزع المُلك عنه وتسليط عدوّه عليه ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ والمراد باليد هو القدرة، أي بقدرتك يا الله تحصل كل هذه الأمور والخيرات ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك يا رب بالغ القدرة على كل شيء في هذا الكون.

نظرة على الأمم عبر التاريخ التي بسطت سلطتها ونفوذها على غيرها من الأمم، وعلى الملوك والرؤساء الذين تربّعوا على سدّة الحكم تجعلنا نرى هذه الحقيقة ماثلة للعيان، فكم من الأمم الظالمة انتزع مُلكها على يد غيرها من الأمم وأذاقوها ألوانًا من الذلّ والهوان، وكم من الملوك والرؤساء الطغاة زالت سلطتهم وأصبحوا أذلاء بعد أن كانوا أعزاء، وهذا كله يشهد بأن الله وحده هو العزيز القهار، يؤتي المُلك من يشاء وينزع الملك مِمّن يشاء.

ثم يوجه القرآن الأذهان إلى عظمة القدرة الإلٰهية في بعض المظاهر الكونية: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الولوج: هو الدُخول، هناك تفسيران لهذا النص، الأول: نُقصان الليل في زيادة النهار، ونقصان النهار في زيادة الليل يتعاقبان على ذلك على مرور الأيام وفصول السنَة، فيكون الليل أحيانًا أطول من النهار ويكون النهار أحيانًا أطول من

الليل. والمعنى الثاني: قد يُراد به تعاقب الليل والنهار، كأن زوال أحدهما دُخولٌ في الآخر والتعبير القرآني بلفظ (إيلاج) يُصَوِّرُ مظهر الليل والنهار على حقيقتهما، فالليل لا ينقلب دفعة واحدة إلى نهار، وكذلك النهار لا ينقلب دفعةً واحدةً إلى ليلٍ، فالنهار يدخل في الليل شيئًا فشيئًا حتى يختفي الظلام ويبدأ نُور الصباح، وكذلك الليل لا يجيء دفعةً واحدةً بل إنَّ ضوء النهار يضعف شيئًا فشيئًا حين غروب الشمس ويحل بعد ذلك الظلام. وتعاقب الليل والنهار ينشأ من دوران الأرض حول نفسها الذي هو آية على عظمة الخالق الذي أبدع هذا الكون على هذا الشكل المُعجز الذي يبهر العقول.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فدورة الحياة والموت على سطح الأرض هي المعجزة التي أودعها الله سبحانه في خَلْقِه. فالإنسان مثلًا ينمو وتدبّ فيه الحياة وتستمر من الغذاء الذي يأكله من النبات ولحوم الحيوان، ويتحول هذا الغذاء إلى عناصر ومواد من نوع جسمه والغذاء عنصر ميت. وإضافة إلى الغذاء الذي يأكله الإنسان وهو شيء ميت فإن بقاء الإنسان حيًّا يقوم أيضًا على الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي. وكذلك الهواء الذي يتنفس منه، والطاقة الشمسيّة التي تبعث فيه الحرارة والدِّفْء، وهذه كلها عناصر ميتة تنشأ عنها الحياة، وهكذا يخرج الله الحياة في سائر أحياء الأرض، أما إخراج الميت من الحي في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فالمراد به إبطال الحياة من الحي بأي سبب أراده الله وعودته إلى أصله: وهو الماء والتراب.

ويختم الله الآية بقوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي ترزق من تشاء من عبادك رزقًا واسعًا لا يُعدُّ لكثرته، وهذا ما نشاهده في هذه الحياة، فكم من أُناس نشأوا فُقراء وأصبحوا في سنين قليلة من أصحاب الملايين.

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ
وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا
فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ
(٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾

شرح المفردات

أَوْلِيَاءَ: أصدقاء أو أنصارًا وأعوانًا.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين.

فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ: : فليس من دين الله في شيء.

تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً: تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتّقاؤه.

يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ: يخوّفكم الله غضبه وعقابه.

الْمَصِيرُ: المرجع.

مُحْضَرًا: مُشاهدًا لها في صحف الأعمال التي دوَّنتْها الملائكة.

أَمَدًا بَعِيدًا : مسافة بعيدة.

يُحْبِبْكُمُ اللهُ: يثيبكم الله.

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ : يتجاوز عنها ويعفو عنها.

لا يخفى على الله شيء من أعمال الإنسان

وبعد أن بيَّن القرآن في ما سبق أن الله بيده المُلك والسلطان المطلق في تصريف الكون، بعد هـذا البيان فمن غير المنطق أن يعتزّ المسـلم بغير الله أو أن يلتجئ إلى غيره، ولكن بعض المسـلمين الذين لم يترسّخ الإيمان في قلوبهم كان يقع في خاطرهم اغترار بعزّة الكافريـن وقوتهم فيركنون إليهم، ويبنون معهم صداقات للحصول على مكاسب منهم، لذا جاءت الآية التالية تنهى عن موالاة الكافرين. قال الله تعالى:

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أولياء: جمع وَليّ، والموالاة تُطلق لُغَةً علـى الصداقة والنُّصرة وتولّي أمر الغير، والمعنى: لا يحلّ للمؤمنين أن يتّخذوا الكافرين أولياء ونُصَـراء متجاوزين المؤمنين، بل عليهم أن يُراعوا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وأن يقدّموها على ما بينهم وبين الكفّار من قرابة أو صداقة، لأن غير المؤمنين لا يمكن أن يراعوا حقوق المؤمنين حقّ الرعاية.

والموالاة الممنوعة هي التي يكـون فيها خذلان للدِّين وإضاعة لمصالح المسـلمين، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وأنواع المعاملات الدنيوية فلا يدخل في ذلك النهي.

وفي أسباب نزول هذه الآية التي نحن في صددها، أنَّ عُبادَة بن الصامت كان له حلفاء مـن اليهود، فقال يوم معركة الأحزاب: يا رسـول الله، إنَّ معي خمسمئة من اليهود، وقد رأيت أن أَستظهر بهم على العدو، فنزلت هذه الآية.

وروي أن بعض اليهود كانوا يخالطون نفرًا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال لهم بعض صحابة رسول الله: أجتنبوهم وأحذروا أن تطلعوهم على أسراركم وخبايا أنفسكم حتى لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل الله هذه الآية.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي ومن يتخذ الكافرين أعداء الإسلام أولياءَ وأنصارًا من غير المؤمنين، فقد برئَ اللهُ منه بارتداده عن دينه ودخوله في مِلّة الكفر ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلّا أن تكونوا في سلطانهم وتحت حكمهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاء والطاعة بألْسنتكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على الإضرار بمسلم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوِّفكم الله من نفسه أن تركنوا إلى معاصيه أو توالوا أعداءه ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ وإلى الله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم حين يحشركم يوم القيامة لمجازاتكم على أعمالكم، فإن الله شديد العقاب لمن يعصيه ويخالف أمره.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ أي قل يا محمد للذين أمرتهم أن لا يتخذوا الكافرين أولياء من غير المؤمنين، قل لهم: إن تخفوا ما في صدوركم من موالاة الكفّار، فتجعلوه سرًّا أو تعلنون ذلك بألسنتكم وأفعالكم يعلمه الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ويعلم الله ما في السماوات وما تشتمل عليه مِنْ بلايين النجوم والكواكب وغيرها، وما في الأرض من كائنات حية ونبات وجماد.

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله سبحانه بالغ القدرة على كل شيء من الأمور، لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه شيء طلبه. فالله سبحانه

أثبت لنفسه العلم بالكون والقدرة على كل شيء، وهذا معناه أنه متمكّنٌ من تنفيذ وعيده للذين يعصون أمره.

وما أعلنه القرآن من أنَّ الله يعلم ما خفي وما ظهر من أُمور الناس هو حثٌّ لهم على مراقبة أنفسهم، والحؤول بينها وبين الوقوع في الزلل والعصيان لله، لأنهم سيحاسَبون على ما فعلوه سِرًّا وعلانيةً، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة تجد كل نفس ما عملت من خير في الدنيا ثابتًا واضحًا، كأنه أُحْضِرَ من الدنيا إلى الآخرة، أو بمعنى أنَّ ملائكة الله أحضرت أعمالهم الخيّرة المدوّنة في الصحف، وهذا تطمين لهم بأن أعمالهم الخيّرة لم تذهب سُدًى، بل سينالون الثواب عليها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي والنفس التي عملت السُّوء في حياتها تتمنى أن يكون بينها وبينه زمن بعيد، لأن ما يخافه الإنسان يرغب أن يتأخر ويؤجّل أطول فسحة من الزمن ليشعر بالأمان، وهذا يكشف عما يختلج في نفوس المسيئين من الألم والحسرة على ما فعلوه في دُنياهم ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوِّفكم الله سخطه وعقابه ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي ومن مظاهر رأفة الله ورحمته أن حذّر الناس من عصيانه لئلا يستحقوا عقابه، وأنَّ من شأنه سبحانه الرحمة والعفو، وليس من العدل في شيء أن يتساوى المحسن والمسيء.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ روي أن هذه الآية نزلت في وفد نصارى نجران لمّا قالوا: إنا نعبد المسيح حبًّا لله، وقيل: نزلت في أقوام زعموا على عهد النبي محمد أنهم يحبّون الله مكتفين بذلك فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقًا من العمل. وقد تتعدّد أسباب نزول القرآن، والعبرة

مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السـبب، والمعنى: قـل يا محمد إن كنتم كما تزعمون تحبّون الله وتعظمون المسـيح حبًا منكم لربّكم، فحققوا قولكم بأتّباعي فيما جئت به من الهدى، فإنّ ذلـك علامة صدقكم في محبتكم لله، فإن اتبعتم ما جئت به من عند الله من الهدى وصدّقتم بأني رسول الله إليكم يحببكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويصفـح ويعفو عما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله سـبحانه كثير الغفران لذنوب عباده التائبين منها، رحيم بهم.

ومحبة الإنسان لله تظهر في تعظيمه له وإجلاله، وإيثار طاعته على غيره، واتّباع أوامـره واجتناب نواهيه. أما محبّة الله للإنسـان فتكـون برضاه عنه، وثوابه له بسبب طاعته له، والعفو عما اقترف من ذنوب، ومن غفر الله له فقد أزال عنه العذاب في الآخرة، وأسكنه جنّته.

وتأمّل آثار محبة الله في الإنسـان بما ذكره الرسول محمد ﷺ بقوله: «إن الله إذا أحَبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: إنّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّه قال: فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فيحبُّهُ أهل السَّماءِ، ثُمَّ يوضع له القَبولُ في الأرضِ...»(١)

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُـولَ﴾ قل لهم يا محمد: أطيعـوا الله بأتّباع كتابه وهو القرآن الذي أنزله عليَّ واتّبعوني لأني رسـول الله إليكم، بأتّباع سُـنّتي وما جئتُ به من عند ربكم من الهدى ﴿فَـإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن طاعة الله وطاعتك ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُحِـبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإنَّ الله لا يحب المعرضين عن طاعته، وعن طاعة رسـوله محمد بل يبغضهم ويمقتهم، وقد وصفهم بالكفر بسبب إعراضهم، ومن كفر فقد استوجب لنفسه الطرد من رحمة الله.

(١) أخرجه مسلم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

شرح المفردات

اصْطَفَى: أختار.

آلَ عِمْرَانَ: منهم عيسى وأُمّه مريم.

ذُرِّيَّةً: الذرية هي النسل.

مُحَرَّرًا: خالصًا للعبادة وخدمة بيت الله.

أُعِيذُهَا: أي ألوذ بك وألجأ وأُحصّنها بك.

الرَّجِيم: المطرود من رحمة الله.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا: أي قَبِل الرب مريم ـ في النّذر ـ بدل الذكر.

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا: وأنشأها تنشئةً صالحةً.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا: الكافل هو الضامن والعائل ومن يقوم برعايته وحضانته.

الْمِحْرَاب: غرفة في بيت الله للعبادة.

أَنَّى لَكِ هَذَا: من أين لك هذا؟

الذين اصطفاهم الله والنشأة الطاهرة لمريم

وبعد أنّ بَيّن اللهُ في ما سبق من الآيات أنّ محبّته لا تتمّ إلّا بطاعته واتّباع رسله الذين أرْسَلهم لِهداية الناس، عَرَضَ في الآيات التالية أسماء بعض هؤلاء الرسل الذين فَضّلهم الله على كثيرٍ من الناس فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فالله سبحانه اختار هؤلاء وجعلهم صفوة خلقه، وفَضّلَهم بالدِّينِ والنُّبوّة وهم:

آدم: وهو أبو البَشَر الذي جعله خليفته في الأرض وأَسْجَدَ له ملائكته.

ونوحًا: وهو الأب الثاني للبَشَر، فقد حَدَثَ على عهده ذلك الطّوفان العظيم فانقرض من السلالات البشرية من كفر بالله، أما نوح ومن آمن معه فقد نجّاهم في الفلك، ونوح هو أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض لهدايتهم وحرّم عليهم الزواج من البنات والأخوات والعمات والخالات.

وآل إبراهيم: والآل في اللغة: الأهل والقرابة. كما يقال آل للأتْباع وأهل الطاعة. ومن ذُرّية إبراهيم: إسماعيل وإسحاق والأنبياء من ذريتهما، ومن ذرّية إسماعيل خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

وآل عمران: إذْ جَعَلَ فيهم عيسى عليه السلام. وعِمْران هو والد مريم أُمّ عيسى، وينتهي نَسَبه إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

وهؤلاء الذين اصطفاهم الله واختارهم **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** أي على عالَمِي زمانهم **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾** أي ذرّية متشابهون في توحيد الله

والإخلاص له وطاعته سبحانه **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي سميع لأقوال عباده، عليم بضمائرهم فهو يصطفي من عباده من يعلم استقامته وإخلاصه، وجاء في القرآن: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾** [الأنعام: ١٢٤].

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ وامرأة عمران يُطْلَق عليها اسم حنّة بنت فاقوذا، وكانت هذه السيدة عاقرًا لا تلد، وكانت تغبط النساء بما يُرزقن من الأولاد، فتحرّكت عاطفة الأمومة في قلبها ولجأت إلى الله بالدعاء بأن يهب لها ولدًا، ونذرت إن حقّق الله رجاءها أن تجعل ولدها هذا مُحَرّرًا: أي خالصًا للعبادة وخدمة بيت الله، وختمت دعاءها بقولها **﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾** أي فتقبل يا رب منّي ما نذرت لك **﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** إنك تسمع دعائي وتعلم نيّتي وإخلاصي لك.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ أي فلما ولدت بنتًا قالت متحسّرة حزينة: رَبِّ إني ولدتُ أُنثى، والأُنثى ما كانت تؤخذ لخدمة بيت الله **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾** أي لا تظني أنّ الذَّكر الذي كنت تتمنين ولادته سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى التي سيكون لها شأن عظيم، إذ منها سيكون عيسى الذي ستلده من دون أب، ويجعله الله معجزة تدلُّ على كمال قدرته ونفاذ مشيئته **﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾** أي وليس الذكر الذي نذرته لله كالأنثى التي ولدتها، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه في العبادة والمكانة، إلّا أنّها لا تصلح لخدمة بيت الله بسبب حُرْمَة اختلاطها بالرِّجال وما يعتريها من حيض، والذكر يصلح للخدمة بما يتمتع به من قوة دون الأنثى لأنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة **﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾** وقد اختارت امرأة عمران اسم مريم للمولودة تقرّبًا بها إلى الله، لأن مريم في لغتهم معناها العابدة **﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** وإني ألتجئ إليك يا ربّ بأن تعصمها وذريتها من الشيطان المطرود من رحمتك. وقد عصم الله بهذا

الدعاء مريم وابنها من أن يمسّها الشيطان بوساوسه لعصيان الله. وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ مَوْلُودٍ إلّا والشيطانُ يمسّه حين يُولد فيستهلّ صارخًا مِن مَسّ الشيطان إياه إلّا مَرْيَمَ وابنها»[١].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي رضيَ الله أن تكون مريم خالصة للعبادة وخدمة بيت الله كأحسن ما يكون القبول ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وتشبيهها بالنبات الحَسَن مجاز عن تربيتها بما يُصلحها في جميع أحوالها، فنشأت على التقوى والصلاح والعفّة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي وجعل الله زكريا كافلًا لها وملتزمًا بمصالحها لتقتبس منه الحكمة والعلوم الدينية وتقتدي به في سائر أحوالها.

وكان زكريا نبيًّا من أنبياء الله ومن ذرّية سليمان بن داود ومتزوجًا من خالة مريم. وهناك رواية تُلقي الضوء على كيفية كفالة زكريا لمريم، وهي أن (حنة) أُمّ مريم لمّا ولدتها حملتها إلى بيتِ الله ووضعتها عند الأحبار وقالت: دُونكم هذه التي نذرتها لله، فتنافسوا فيها بمن يكفلها، وأبوا إلّا القُرعَة، فانطلقوا إلى نَهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم، وبهذا وقعت القرعة على زكريا الذي قام بكفالتها بأمر الله على أفضل ما يرام.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ والمحراب الذي كانت فيه مريم هو غرفة عالية بُنيت لها في بيت الله لا يُصعد إليها إلّا بسُلّم، وقيل: المحراب يطلق على ذات بيت الله، وقيل: المحراب هو ما يعبّر عنه أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة في مقدّم المعبد. فزكريا كان كلّما دخل عليها للقيام بشأنها والإتيان بطعامها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي وجد عندها طعامًا، قالوا إنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء،

(١) متفق عليه، وأخرجه البخاري بهذا اللفظ.

فيعجب زكريا من ذلك ويسألها ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي من أَيْنَ لَكِ هذا الرّزق النّادر؟ فتجيبه كما ذكر لنا القرآن: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ثم أكّدت قولها بما يزيل العجب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذه الجملة يُحتمل أن تكون من كلامها أو تكون كلامًا مستأنفًا من كلام الله سبحانه، فالله سبحانه يرزق من يشاء من عباده رزقًا وافرًا ليس له حدّ، ولا يُحصيه عدٌّ لكثرته، وخزائن الله لا تنفد من أي عطاء يخص الله به من يشاء من عباده.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً
إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ
أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا
مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل
لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾

شرح المفردات

مِن لَدُنْكَ: من عندك.

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً: ولدًا صالحًا مباركًا، والذرية تطلق على الذكر والأنثى وعلى الولد الواحد والكثير.

سَمِيعُ الدُّعَاءِ: مجيب الدعاء.

الْمِحْرَاب: غرفة في بيت الله للعبادة.

بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ: تُطلق الكلمة على عيسى لأنه خُلِقَ بكلمة (كن) من الله فكان بشرًا.

وَسَيِّدًا: يطلق على الرئيس والحليم والشريف والفاضل.

حَصُورًا: هو الذي لا يأتي النساء تعففًا لا عجزًا.

أَنَّى: كيف.

وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ: عقيم لا تلد.

اجْعَلْ لِي آيَةً: علامة أستدلّ بها على بداية الحمل من امرأتي.

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ: أي لا تقدر على كلامهم.

إِلَّا رَمْزًا: أي لا تكلمهم إلا إشارة.

وَسَبِّحْ: التسبيح هو الصلاة.

بِالْعَشِيِّ: هو الوقت ما بعد الظهر إلى غروب الشمس.

وَالْإِبْكَارِ: أول النهار.

الملائكة تبشّر زكريا بولد اسمه يحيى

ولمّا رأى زكريّا عليه السلام ما خصّ الله به مريم من كرامة حيث كان يرزقها بغير الطرق المعتادة، رزقًا وافرًا، وأيقن بقدرة الله القادرة على كل شيء، وبعد أن رأى من مريم ما رأى من علامات الذكاء والطيبة والورع، تحرّكت في نفسه عاطفة الأبوّة، ورغب في الذريّة الصالحة، فتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

هنالك: أي في ذلك المكان وهو المحراب الذي كان يلتقي فيه زكريا بمريم مرّة بعد مرّة، ويرى ما خصّ الله مريم من عجائب وكرامات، اتجه زكريا إلى ربّه وتضرّع إليه بأن يرزقه ذريّة طيّبة وهي المرغوب فيها التي

لا يصدر منها إلّا الخير، وختم زكريا دعاءه **﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾** أي إنك يا ربّ تسمع دعوتي وتعلم رغبتي بالولد وإنّك سريع الإجابة لمن يدعوك.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أكرم الله زكريّا فأجاب دعاءه فأرسل إليه الملك جبريل، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيمًا لشأنه، وَقَلّ أن يرسله الله إلا ومعه جَمعٌ من الملائكة. فبشّره جبريل بالولد الذي سيُرزق به، وكانت هذه البشرى في وقت مناجاته ربه وهو يصلّي في المحراب، والدعاء في الصلاة أدعى إلى الإجابة، لأن الإنسان في الصلاة يكون قريبًا من خالقه، وهذا الولد الذي بشّره به اسمه يحيى، وسُمّي بذلك لأن الله أحياه بالإيمان، وهذا الولد سيخصّه الله بالمزايا الآتية:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى بأنه رسول من عند الله، وسُمّي عيسى **﴿كَلِمَة﴾** لأنه خُلِقَ بكلمة من الله تعالى التي هي **﴿كُنْ﴾** فكان من غير أب، أو بمعنى أن يحيى مُصدّق بكتاب الله المُنزل، لأن الكتب المنزلة من عند الله هي من كلامه تعالى **﴿وَسَيِّدًا﴾** كما أن يحيى هو سيّد، والسيّد يطلق على الرئيس والشريف والفاضل والحليم، فكلمة السيّد تتضمن معاني السؤدد ومكارم الأخلاق **﴿وَحَصُورًا﴾** وأصل معنى الحصر: الحبس، والمراد أنّ يحيى حَبَسَ نفسه عن الشهوات، وحبسها عن المعاصي، وقيل: إن يحيى كان لا يقرب النساء مع القدرة على ذلك لانهماكه في العبادة **﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** هنا بشارة بنُبوّة يحيى بعد البشارة بولادته، وأن الله لا يختار أنبياءه إلّا من الصالحين من عباده، لأن الله يعصمهم من الانغماس في الشرّ والمعصية قبل النبوّة وبعدها.

لمّا سمع زكريّا البشـارة بالولد أخذه العجب وقال مخاطبًا ربه: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾ أي كيف يكون لي غـلامٌ ﴿**وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ وكان زكريا شـيخًا هَرِمًا مُتَقَدِّمًـا في العُمر وأمرأته كانت عاقرًا لا تلد ﴿**قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ أي قال الله لزكريّا: إنَّ ذلك الشيء الذي تتعجَّب منه من أنك سَتُرزَقُ ولدًا وأنت شيخ وامرأتك عاقر، مثل ذلك الإنجاب يفعل الله ما يشـاء في الكون بغير السنن المعهودة عند البشر.

﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً**﴾ قال زكريا: ربِّ اجعل لي علامة أستدلُّ بها على أنَّ امرأتي حامِل ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّـاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾ أي أجاب الله زكريّـا بما أوحى إليـه: بأن العلامة التي تـدل على حمل امرأتك هي أنك لا تقدر على مكالمة الناس إلّا عن طريق الإشـارة باليد أو الرأس أو نحوهما لمدة ثلاثة أيام، حيث يُحبس لسانك عن القدرة على مكالمة الناس، ولكن لا يُحبس لسـانك عن ذِكْرِ الله والثناء عليه ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا**﴾ أي اذكره كثيرًا بالشـكر والحمد على هذه النعمة ﴿**وَسَبِّحْ بِالْعَشِـيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ أي وعظِّم ربَّك بعبادته والصلاة له صباحًا ومسـاءً، والمراد بذلك جميع الأوقات. والعشـيّ هو الوقت من زوال الشمس إلى أن تغيب، والإبكار: هو الوقت من طلوع الشمس إلى الضحى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ
مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ٱصْطَفَاكِ: اختارك لعبادته وحسن طاعته.

طَهَّرَكِ: نقّاكِ من الأدناس والذنوب وسائر الصفات السيئة.

على نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: أي على عالمي زمانها ومن يأتي بعدها من النساء.

اقْنُتِي لِرَبِّكِ: داومي على طاعته وأخلصي العبادة له.

وَاسْجُدِي: واخضعي لربك، وتذلّلي له، وقد يعبّر بالسجود عن الصلاة.

يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ: يضعون أقلامهم التي يكتبون بهـا التوراة في النهر عند الاقتراع على كفالتها.

يَخْتَصِمُونَ: يتنازعون.

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ: هي الكلمة التي خَلَقَ الله بها عيسى وهي كلمة «كُن» فكان.

وَجِيهًا: صاحب جاه وشرف.

فِي الْمَهْدِ: مضجع الصبي وهو رضيع.

وَكَهْلًا: أي ما بين الشباب والشيخوخة.

لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ: كناية عن الجماع، أي لم يقرب مريم رجل عن طريق الزواج.

منزلة مريم عند الله

ويُتابع القرآن فيبيِّن ما خصّ الله مريم به من ميزات كريمة لم تتوفر لامرأة غيرها، قال الله تعالى:

﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ**﴾ أي واذكُر يا محمد للناس حين قالت الملائكة لمريم: إنَّ الله اختارك لطاعته، وخِدْمَةِ بيته، وخطاب الملائكة لمريم هو شَرَفٌ خصّها الله به دون سائر النساء ﴿**وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ أي وطهّرك ربُّك من الأدناس ومن الكُفر والذُّنوب والأفعال الذميمة، واختارك على نساء العالمين في زمانك، وجائز أن يكون على نساء العالمين كلهن، وقد كرّر الله لفظ الاصطفاء لمريم لِمَا خصّها به من التكريم، فالاصطفاء الأوّل هو أنَّ الله اختارها لطاعته وخدمة بيته. والاصطفاء الثاني بأن وهب لها ابنًا هو الرسول عيسى عليه السلام من غير أبٍ ومن غير أن يمسّها أَحَدٌ من البشر.

وتابعت الملائكة خطابها لمريم: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ**﴾ والقنوت عبادة الله، ولزوم طاعته مع الخضوع له ﴿**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ والسجود[1] وضع الجبهة على الأرض تذلّلًا، والركوع: هو الانحناء بالرأس والجسد خشوعًا لله تعالى، وخُصّ الركوع والسجود بالذِّكر لشرفهما لأنهما من أركان الصلاة، والمراد ﴿**مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ أي لتكن صلاتك جماعة مع المؤمنين.

(١) السجود: يأتي بمعنى الخضوع لله، وكل من ذل وخضع لما أمر الله به فقد سجد.

﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ أي أن ما ورد من قصّة زكريا ومريم هو من أخبار الغيب لم تكن تعلمها أنتَ يا محمد ولا قومك، أخبرك الله بها عن طريق الوحي إليك لتكون دليلًا على صدق نبوّتك ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ**﴾ أي وما كنت يا محمد حاضرًا بين الأحبار حين تنازعوا على كفالة مريم حين قدّمتها أُمّها لخدمة بيت الله، ولفضّ النزاع بينهم اتفقوا على الاقتراع بأن يأخذوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة ويضعوا أسماءهم عليها ويلقوها في النهر، ولمّا فعلوا ذلك غرقت أقلام الأحبار وَبرَزَ قلم زكريا على وجه الماء، وهكذا وقعت القرعة على زكريّا الذي قام بكفالة مريم، وإنما خصّت الأقلام للقرعة لما تحمل من بركةٍ حيث كانوا يكتبون بها التوراة.

ثم يختم الله الآية ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ أي وما كنت معهم يا محمد حينما تنازعوا في شأن مريم وأيهم أحق بكفالتها، وهنا إثبات لنبوّة محمد ﷺ حيث يخبر قومه بأخبار أوحاها الله إليه لم يكن يعلمها هو ولا قومه.

البُشرى بولادة عيسى عليه السلام

ثم تأتي صفحة جديدة فيها الكلام عن مريم حيث قال الله سبحانه:

﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ أي واذكُر يا محمد لقومك حين قالت الملائكة: يا مريم إنَّ الله يُخبرك بخبرٍ سارٍّ وهو أنه سيمنُّ عليك بولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم. وقد ذكر الله المسيح في الآية هنا بأنه (كلمة) لأنَّ الله سبحانه خلقه بكلمة منه هي «كُنْ» فكانَ، لأن عيسى لم يُخلق بطريق التناسل بين ذَكَرٍ وأُنثى كما يُخلق سائر الأحياء على الأرض، بل خَلَقَ الله عيسى خلاف ما يُخلَقُ البشر.

وقد أَطلق القرآن على المولود الذي ولدتـه مريم ثلاث تعريفات: لقب، واسـم، وكنية. أما اللَّقَب فهو المسيح، وأمّا الاسـم فهو عيسى، وأمّا الكنية فهي ابن مريم.

وسُـمِّيَ عيسى بالمسيح لأنه كان لا يمسـح ذا عاهة أو مَرَضٍ إلّا شُفِيَ، وقيل: إنه سُمِّيَ بالمسيح لأنه مُسِحَ بالطهر من الذنوب. وقيل: المسيح أصله مشـيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك. وأمّا كُنْيَة عيسى فهي ابن مريم للإشارة إلى أنَّ نَسَبه ثابت لِأُمِّه لا لِأَحَدٍ سواها.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أن عيسى عليه السلام ذو شرف وجاه في الدنيا والآخـرة، أما وجاهته في الدُّنيـا فهي النُبوّة، وأما في الآخرة فهي الشـفاعة وعلوّ المنزلة في الجنة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهو مقرب عند الله يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي أن عيسـى يكلّم الناس في حال كونه طفلًا في المهد كما يكلمهم في سـنّ الكهولة بكلام لا تفاوت فيه بين حال الطفولة والكهولة. والكهل عند العـرب هو الذي اجتمعت قوته وجاوز الثلاثين من عمره، فعيسـى عليه السلام تكلّم في المهد ببراءة أُمّه، وهذا الكلام هو معجزة عظيمة له، كما تكلّم في سـنّ الكهولة حين بلّغ رسالة الله إلى قومه ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كما أن عيسى من عباد الله الصالحين الذين نالوا رضاه.

وبعد أن بشَّرت الملائكة مريم بالولد الذي ستلده أخذها العجب ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون لي وَلَدٌ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَـرٌ﴾ فمريم تنفي أن يكون لها زوج ولم يتصل بها بشـر فكيـف يكون لها ولد؟ ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَـاءُ﴾ أي أجابها الله بواسطة الملك جبريل: إنَّ هذا الولد الذي سـتلدينه يا مريم من دون أب هو معجزة من الله وهو واحد من الإبداعات الكثيرة التي يخلقها الله كما يشـاء وبغير الأسباب المعهودة،

والملفت للنظر ما جاء في الآية تعقيبًا على خَلْقِ عيسى من غير أب ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَـاءُ﴾ والخلق فيه إبداع فيقال خلق الله السـماوات والأرض ولا يقال فعـل الله السـماوات والأرض. أمّا بشـأن خلق يحيى مـن أبوَيْن عجوزين فقد عبّرت عنه الآية ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] فهو كإيجاد سائر الناس بما هو المتعارف بينهم مع ما فيه من الغرابة ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أن الله إذا أراد إيجاد شيء فإنما يقول له ﴿كُنْ﴾ فيكون ويحصل فورًا من غير امتناع، وقد وصف القرآن السـرعة في إيجاد الشيء الذي يريده الله ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ
ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ
ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ
وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي
حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾
إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾

شرح المفردات

الْحِكْمَة: العِلمُ النافع والفهم لكتاب الله وسِرّ التشريع فيه.

بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ: بمعجزة من ربّكم تشهد بأني رسول الله إليكم.

الأَكْمَهَ: الذي وُلِدَ أعمى.

الأَبْرَصَ: البرص بَياضٌ يُصيبُ الجِلْدَ البشريّ.

مَا تَدَّخِرُونَ: ما تُخَبِّئونه للأكل فيما بعد.

ما خصّ الله عيسى من علم ومعجزات

ويُتابع القرآن فيذكر ما بَشّرت به الملائكة مريم من صفات ولدها عيسى عليه السلام وما سيخصّه ربه من ميزات وما سيؤيّده من معجزات تحصل على يديه: **﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾** الكتاب: المراد به الكتابة والخط، فإن عيسى عليه السلام قد أرسله الله إلى قوم اشتهروا بالعلم والمعرفة، فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره في هذه النواحي، كما أكرم الله عيسى بالحكمة: وهي العلوم الشرعية وإصابة الحق في القول والعمل، وعَلّمه الله التوارة التي أنزلها على موسى عليه السلام، كما علّمه الإنجيل الذي أوحاه إليه خاصة.

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وسيجعل الله عيسى رسولًا منه إلى بني إسرائيل لهدايتهم **﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** هذه الجملة فيها الْتِفاتٌ وانتقال من خطاب الله لمريم إلى ما يقوله عيسى لقومه بأنه مؤيد من الله بالمعجزات التي تدلّ على صِدْقِهِ بأنه رسول من عند الله **﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾** والخلق في الآية المراد به التصوير، فعيسى يقول لقومه: إني أصوّر لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فتدبّ الحياة في أرجائه فيكون طيرًا بإذن الله. وقوله: **﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾** نفي لما قد يتوهم البعض بأنه شريك لله في خلق الكائنات **﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾** وأَشفي من وُلِدَ أعمى وأُعيد البصر إليه، وأشفي من أُصيب بمرض البرص وهو مرض جلدي، وكذلك فإني

أُعيد الحياة إلى من مات، ولا أفعل ذلك بقدرتي الذاتية وإنما أفعله بإذن الله وإرادته وأمره، وهذا أيضًا نكران لذاته بأنه لا يستطيع فِعْلَ ذلك بنفسه، بل الفاعل هو الله سبحانه **﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾** وأخبركم بالذي تأكلونه ولم أُشاهده وما تدّخرونه في بيوتكم من مال وطعام لوقت حاجتكم إليه **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ﴾** إن في تلك المعجزات التي أجراها الله على يدي لدلالة واضحة على أني رسول الله إليكم **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن كنتم مصدّقين بوجود الله ووحدانيته وقدرته الشاملة على كل شيء.

وتابع عيسى قوله: **﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** أي وجئتكم مصدّقًا بالتوراة الحاضرة لديّ التي نزلت على موسى لا ناسخًا لها ولا مخالفًا لأحكامها **﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾** فقد حرّم الله على بني إسرائيل بعض الطيّبات من الأطعمة بسبب ظلمهم كما جاء في القرآن:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]

فجاءت شريعة عيسى عليه السلام لِتُحِلّ لهم بعض ما حرّمه الله عليهم **﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** وجئتكم بمعجزة من ربكم تشهد بأني رسول الله إليكم. وقد ذُكِرَت المعجزة هنا مفردة مع أنّ الله أيّد عيسى بمعجزات كثيرة لأنها جنس واحد في الدلالة على صحة رسالته من الله، وقد أعاد عيسى ذكر المعجزة ليصير كلامه مؤثرًا في قلوبهم **﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾** فاتقوا الله لتنجوا من عذابه وذلك بالعمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وأطيعوني فيما آمركم به .

﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ والربّ: من معانيه المالك والمدبّر والمربي والمنعم، فعيسى عليه السلام يقول لقومه: إنّ الله هو مالكنا ومدبّر أمورنا

وهو الذي ربّانا بالشـرائع المنزَّلة من عنده وهو المنعـم علينا بما رزقنا من الطيبات، وما دام الأمر كذلك فحقٌّ علينا أن نعبده وحده ولا نشـرك بعبادته أحدًا ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ﴾ فعبادة الله وحده هي الطريق المسـتقيم الذي يوصلنا إلى مرضاته، والسعادة في الآخرة.

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى
ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ
وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦)
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٧) ﴾

شرح المفردات

الْحَوَارِيُّونَ: أصحاب عيسى وخواصه وأنصاره.

وَمَكَرُوا: المكر تدبير الشرّ خفية، وذلك حين دبَّروا أمر اغتيال عيسى عليه السلام.

وَمَكَرَ اللهُ: أبطل مكرهم.

مُتَوَفِّيكَ: قابضك من الأرض من غير أن تنال اليهود منك شيئًا.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ: فيؤتيهم الله ثواب أعمالهم الصالحة.

نجاة عيسى من القتل

وبعد أن ذكرت آيات القرآن المعجزات التي أيّد الله بها عيسى انتقلت بنا الآيات إلى ذكر قصته مع قومه حين دعاهم إلى الإيمان واتّباع دعوته، ولكن قومه قابلوه بالأذى والاضطهاد، قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَـى مِنْهُـمُ الْكُفْرَ﴾ فلمّا تبيّن لعيسـى الكفر من قومه برسـالته، وأخذوا يُنزلون به الأذى نادى في أتباعه: **﴿قَـالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾** أي مَنِ الذين يرضـون أن يكونوا أنصاري إلـى الله لِأُواجه بهم الذين يحاربون دعوتي **﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾** أجاب الحواريون: نحن أنصار دينِ الله، ونحن جنـوده المؤيدون لدعوتـك. والحواريون: هم أعوان عيسـى والمخلصون في طاعته ومحبته. وتابع الحواريون قولهم **﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْـهَدْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ﴾** صدّقنا بوجود الله ووحدانيّته إيمانًا صادقًا، واشهد علينا يا رسول الله بأنّنا خاضعون للهِ ومنقادون لأوامرك .

ثم توجّه أنصار عيسى إلى الله معلنين إيمانهم قائلين:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي يا ربنا إنّنا صدّقنا بما أنزلته على عيسى من الوحي واتّبعناه بما يأمرنا به وينهانا عنه، فاكتبنا في جملة من شـهدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالتصديق، واجعلنا يا رب في عدادهم فيما تخصهم به من مكرمات **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾** والمكر: هو تدبير الشـرّ للغير خفية، والاحتيال لإيقاع الأذى به. فهؤلاء اليهود دبّروا القتل لعيسى عليه السلام واتخذوا كل الوسـائل الذميمة لتنفيذ مآربهم فوشوا به إلى

ملك الرومان وادَّعوا أنه يضلّ النّاس ويصدّهم عن طاعة المَلِكِ ويفسد الرعية، فبعث الملك في طلبه لأخـذه وصلبه ﴿وَمَكَـرَ اللَّهُ﴾[1] أي أحبط الله مكرهم وأبطل تدبيرهم بأن نجّى الله عيسـى. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أن الله أقوى وأقدر على إيصال الضر بالماكرين. والقرآن صرّح بأنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فقد ألقى الله الشَّبَه على غيره الذي صُلب، والروايات في الذي صُلِبَ هو يهوذا.

وبعد أن نجّى الله عيسى من القتل خاطبه بقوله:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَـى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فكما أن التوفِّـي يأتي بمعنى الموت فهو يأتي بمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] إذ رُوي أن عيسـى رفعه الله إليه وهو نائم رِفقًا به. والتوفِّي في اللغة يأتي بمعنى القبض، من قولهم: توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تامًّا، فالله سـبحانه يقول لعيسـى: إني قابضك ورافعك إليّ من غير موت إلى محلّ كرامتي في السـماء ومقرّ ملائكتي، وجمهـور العلماء ذهبوا إلى أن عيسـى رُفع حيًّا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء وبقائه فيها إلى الأمد المقدّر لـه. ويرى بعض العلماء أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا بمعنى: إني رافعك إلـيّ ومتوفّيك بعد ذلك بعد نزولك من السـماء إلى الأرض، وقد وردت أحاديث نبويّة في البخاري ومسـلم عن نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان فيحكم بشريعة الإسلام ويملأ الأرض عدْلًا ثم يميته الله.

---

(١) المكر ليس من صفات الله لأن المكر من صفات الضعفاء والأشـرار ولا يطلق على الله إلّا بأسلوب المشاكلة، وهو التعبير عن الشـيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، والصحبة هنا جاءت عند قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا﴾ فصحبتها ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

ثم يتابع الله قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مطهرك يا عيسى من سوء جوارهم، وخُبْث صحبتهم، ودَنَس معاشـرتهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهو كون الذين اتَّبعوك يا عيسـى من النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامـة، والعلوّ أي الفوقيّة المقصودة في الآية يحتمل أن يكون علوًّا فـي الدرجة والمنزلة عند الله، كمـا يحتمل أن تكون بمعنى الغَلَبة بالحجة والبرهان، والكثير من أحرار أوروبا وأميركا من العلماء يعتقدون بأن المسيح رسـول من عند الله وليس إلَهًا، وقدّموا الحجج والأدلة على اعتقادهم هذا، ولا تزال الدراسـات في حقيقة السـيد المسيح تؤيّد ما ذهب إليه الإسلام.

ثم يقول الله سـبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثُمّ إلـى الله مرجع الفريقين في الآخرة: فريق اتّبعوا المسيح وصدَّقوا به واعتقدوا بأنه رسول من عند الله، والفريق الآخر كفروا باعتقادهم بإنه إلَه، أو أنكروا نبوّته كما هو حال اليهود ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فيقضي الله بين الفريقين فيما اختلفوا في شأن عيسى ﷺ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فأمّا الذين جحدوا نُبوّة عيسـى وخالفوا ملّته وقالوا ما قالوا فيه من الباطل ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وهذا العذاب ظهر بما قاسـوه من ويلات الحروب التي اندلعت في ما بينهم وقضت على الملايين منهـم، إضافة إلى تدمير بلادهم ومرافقهم الحياتية، كما أن العذاب يسـتمر بما يصيبهم الله من زلازل ورياح عاصفة مدمّرة وسيول جارفة تسـبب أفدح الخسائر بسبب ذنوبهم، بالإضافة إلى عذاب الآخرة الذي يفوق كثيرًا عذاب الدنيا ﴿وَمَـا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وليس لهم من يدافع عنهم أو يدفع عنهم عذاب الله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأمّا الذين صدّقوا بِنُبوّة عيسى وصدّقوا بوحدانيّة الله وعملوا صالح الأعمال ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيعطيهم

الله ثواب أعمالهم ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ والظلم وضع الشيء في غير موضعه، كما يأتي بمعنى الجوْر ومجاوزة الحد، والمراد بالظلم هنا الكفر بوحدانية الله حين جعل النصارى الله سبحانه أحد الأقانيم الثلاثة[1] والألوهية للمسيح عليه السلام. كما أن الكفر من اليهود حيث أنكروا نُبوّة المسيح عليه السلام. هذا وإن إطلاق وصف الظلم عليهم للإشعار بأنهم بكفرهم هذا متجاوزون الحدّ لأنهم وضعوا الكفر مكان الإيمان الذي دعاهم الله إليه.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ
وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

شرح المفردات

وَالذِّكْر الْحَكِيم: القرآن المحكم الذي ينطق بالحكمة.

مَثَلَ عِيسَى: أي حالُهُ وصِفَتُهُ العجيبة.

الْمُمْتَرِينَ: الشاكّين في أنه الحق.

حَاجَّكَ: جادَلَكَ ونازعك.

(١) الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين: الآب والابن والروح القدس.

تَعَالَوْا: هلمّوا، وأَقبِلوا بالعزم والرأي.

نَبْتَهِلْ: الابتهال هو الاسترسال في التضرُّع إلى الله.

تَوَلَّوْا: أعرضوا ولم يَقْبلوا ما جاء به رسول الله من الهدى.

خَلْقُ عيسى كَمَثَلِ خَلْقِ آدم

وبعد أن ذَكَرَ القرآن قصّة المؤامرة على قتل السيّد المسيح، وما هيّأ الله له من النجاة، أتبع ذلك ببيان بطلان مزاعم الذين يدّعون له الألوهيّة لأنه خُلِقَ من دون أب، قال الله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدّم من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين، يخبركَ الله بها يا محمد عن طريق الآيات التي يتلوها عليك الملك جبريل **﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾** وهذه الآيات هي من القرآن المحكم الذي يفصل بين الحق والباطل، والذكر: من أسماء القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ هنا شبّه الله خلق عيسى بخلق آدم من تراب **﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** ثم قال الله لعيسى (كُن) أي كن بشرًا **﴿فَيَكُونُ﴾** فصار عيسى بقدرة الله روحًا وجسدًا[1].

فالآية هنا تُشبّه خَلْق عيسى بخلق آدم، ولكنَّ خَلْق آدم أغرب وأبدع في التكوين من خَلْق عيسى حيث إنَّ آدم خُلِقَ من دون أب ولا أم، أما عيسى الذي خُلِقَ من دون أب فقد تكوّن في بطن أمه كما يتكون سائر البشر.

(١) هذه الآية نزلت عند حضور وفد نصارى نجران إلى الرسول محمد وكان من جملة حججهم أن قالوا: يا محمد لَمّا سَلّمْتَ أن عيسى لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله، فنزلت هذه الآية التي تردّ على مزاعمهم الباطلة.

هذا وقد نفى القرآن الولد عن الله سبحانه بما جاء في سورة مريم ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

ثم يقول الله سبحانه ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الامتراء: هو الشكّ الذي يدفع بالإنسان إلى المجادلة المبنيّة على الأوهام. والمعنى: إنَّ ما أخبرك ربك يا محمد في شأن المسيح هو الحق الذي لا مجال للشك فيه والخطاب للنبي محمد ﷺ والمراد به أمّته، لأن النبي ﷺ لم يكن شاكًّا في أمرِ خَلْقِ عيسى عليه السلام.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ[1] فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي فمن جادلك يا محمد في شأن عيسى من بعد ما جاءك من العلم اليقيني من عند ربك في شأنه ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فقل: هلمّوا لأن يدعو كل منّا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ والابتهال: الاسترسال في التضرُّع، أي ثم نتضرَّع في الدعاء بأن يجعل الله لعنته على من كذّب في شأن عيسى وادّعى الألوهيّة له.

واللافت للنظر في الآية هو مشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمُلاعَنَةِ على اعتبار أنَّ المرأة كالرجل في الأمور العامة في نظر الإسلام، فلو لم يعلم الله أن المؤمنات على يقين في اعتقادهن كالمؤمنين لم يشركهن معهم في هذا الاجتماع، ثم توجّه رسول الله ﷺ إلى وفد نجران وقرأ عليهم هذه الآية التي تدعو إلى الملاعنة، فقالوا لرسول الله: أمْهلنا حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدًا. فلما خلا وفد نصارى نجران بعضهم ببعض قالوا لرئيس من رؤسائهم واسمه العاقب وكان صاحب رأي فيهم: ما ترى يا عبد المسيح؟

(١) المُحاجَّة: تبادل الحُجَّة، وأن يَرُدَّ الآخر عن حجته عن طريق الجِدَال والمغالبة.

وهنا جرى حديث طويل نختصره بأن قال العاقب لهم: والله يا معشر النصارى، إنَّ محمدًا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، ولقد جاءكم بالحق في أمر عيسى، والله ما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال لكم، فإنْ أبَيْتُم إلّا الإصرار على دينكم فوادعوا محمدًا وانصرفوا إلى بلادكم، ثم كان الاتفاق بينهم وبين رسول الله ﷺ بأن لا يغزوهم ولا يردّهم عن دينهم مقابل جزية (من مال وغيره) يؤدونها له كل عام ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فالله سبحانه يقول: إن هذا الذي قصصته عليك يا محمد من أخبار عيسى بأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم لهو القَصَصُ أي النبأ الحق، وقد أكّد الله صِدْقَ القَصَص بحرف ﴿إِنَّ﴾ وباللام الزائدة التي تفيد التوكيد الداخلة على (هو).

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ﴾ هنا نفي قاطع لأن يكون هناك إلٰه سوى الله فهو سبحانه الواحد الذي لا شريك له في مُلكه وتدبيره لهذا الكون، وهذا النفي هو توكيد للمعنى السابق ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي إن من شأن الإلٰه أن يكون متصفًا بالعزّة والغلبة والحكمة البالغة في تدبيره لأمور خَلْقه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإنْ أعرضوا عمّا أُوتيتَ به يا محمد من عند ربّك في شأن عيسى ﴿فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فالله سبحانه يعلم من يفسد من خَلْقه فيجازيه على ذلك. فالإعراض عن توحيد الله إفساد للدِّين يؤدي بدوره إلى إفساد النفس بل إلى إفساد العالم، لأنَّ المعتقدات الباطلة تؤدي إلى التنازع والتقاتل بين البشر كما جرى ذلك عبْر تاريخ الأمم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ
وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ
فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ
لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

شرح المفردات

كَلِمَةٍ سَوَاءٍ: كلمة عدل وإنصاف لا تختلف فيها الشرائع.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ: أي لا يتخذ بعضنا بعضًا آلهة يعبدونهم من دون الله.

فَإِنْ تَوَلَّوْا: فإنْ أعْرضوا.

مُسْلِمُونَ: منقادون، وخاضعون لله.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ: هم اليهود والنصارى، والمقصود بالكتاب: التوراة والإنجيل.

تُحَاجُّونَ: تجادلون.

حَنِيفًا: مائلًا عن المِلل الباطلة إلى الدين الحق.

أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ: الأحق والأجدر والأقرب منه.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ: ناصرهم ومتولّي أمورهم.

الدعوة إلى عبادة الله وحده

ويُتابع القرآن الكلام عن أهل الكتاب فيدعوهم إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وتلك هي عقيدة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وكلمة سواء: أي كلمة ذات عَدْلٍ وإنصاف. فالله سبحانه يأمر رسوله محمدًا بأن يقول لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى: هلُمّوا وأَقبِلوا إلى كلمة عادلة مستقيمة ذات إنصاف بيننا وبينكم **﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾** أي فلا نعبد صنمًا ولا كوكبًا ولا بَشَرًا ولا ملائكة ولا نبيًّا، ولكن نعبد الله وحده ولا نشرك بعبادته أحدًا من خلْقه **﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾** أي ولا يسجد بعضكم لبعض، ولا تطيعوا أحباركم ورهبانكم فيما أحدثوا من تحريم الحلال وتحليل الحرام من غير الرّجوع إلى ما شرع الله، وجاء تأكيد ذلك في موضع آخر من القرآن:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

حيث أطاعوهم بتحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله. وعن عدي بن حاتم وكان نصرانيًّا قال لرسول الله: ما كُنّا نعبدهم! قال رسول الله ﷺ: أليس كانوا يُحِلُّون لكم ويُحَرِّمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال رسول الله: هو ذاك.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن عبادة الله وحده وأبوا إلّا أنْ يعبدوا غير الله ويطيعوا أحبارهم ورهبانهم في غير ما شرع الله **﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** أي قولوا يا معشر المؤمنين لهؤلاء الذين أشركوا بالله: اشهدوا بأننا نعبد الله وحده مخلصين له الدِّين لا نعبد سواه ولا نتوجّه إلى غيره في طلب نفع أو دَفْعِ ضُرّ.

هذه الآية من أبلغ الآيات التي خاطبت اليهود والنصارى بأسلوب منطقيّ في دعوتهم إلى عبادة الله وحده، إنها دعوة منصفة لأنها كلمة سواء يقف الجميع بها على مستوى واحد لا يعلو بعضهم على بعض، دعوة عادلة لا يأباها إلّا كل متكبر جاحد للحق لا يريد أن يرجع إلى الصواب. ولقد كان الرسول محمد يضمّن هذه الآية كل الرسائل التي كان يرسلها إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

ثم تأتي الآية التالية وفيها ردّ على اليهود والنصارى حيث ادّعى كل منهما أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، فقد رُوي عن ابن عباس أنه اجتمع عند النبي ﷺ نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده، فقالت أحبار اليهود: ما كان إبراهيم إلّا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلّا نصرانيًّا فأنزل الله فيهم الآية التالية ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي يا أهل الكتاب لِمَ تجادلون وتتنازعون في دين إبراهيم ويدّعي كل منكما أنه كان على دينكم؟ ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا يدين بالتوراة مع أنها نزلت من بعده؟ وكيف يكون إبراهيم نصرانيًّا يَدِين بالإنجيل مع أنه نزل من بعده؟ علمًا بأنه بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبينه وبين عيسى ألفان ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون فيما تقولون وترجعوا إلى صوابكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال العقيم.

﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها: للتنبيه، أي تنبّهوا أنتم يا معشر اليهود والنصارى حيث جادلتم وخاصمتم فيما لكم به عِلْمٌ من التوراة والإنجيل، ويحتمل أن الله لم يصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد ما يدّعونه من العلم بهما ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي فلماذا تجادلون وتخاصمون في أمر دين إبراهيم الذي لا عِلْمَ لكم بدينه؟

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هنا يقرّر الله العِلْمَ المطلق له وينفي عنهم العلم في هذا المقام، فهو سبحانه يعلم حال إبراهيم وما أَنزل عليه من الوحي، ويعلم الحقّ الذي يتجادلون فيه.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي ما كان إبراهيم على ملّة اليهود ولا كان على ملّة النصارى ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ ولكن كان منصرفًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مُوَحِّدًا لله، خاضعًا له، منقادًا إلى ما فرض الله عليه من عبادة وأحكام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم من الذين اتّخذوا مع الله إلَهًا آخر، ولا مِنَ الذين توجّهوا إلى غير الله في العبادة.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي إن أحق الناس وأجدرهم بالانتساب إلى إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الذين كانوا على شريعته في زمانه ومن بعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ والمراد به محمد ﷺ الداعي إلى وحدانية الله التي دعا إليها إبراهيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المؤمنون الذين صدّقوا بأن محمدًا رسول الله واتّبعوه فيما جاء به من عند ربّه ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا يبشّر الله المؤمنين بأنه ناصرهم ومتولّي أمورهم، وقد صدق الله وعده فنصر رسوله محمدًا والذين آمنوا معه على كل من ناوأهم من الكفار.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ
هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ
إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

وَدَّتْ: أحبّت، تمنّت.

وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ: أي أنكم تشهدون بأنه حق من عند ربكم.

تَلْبِسُونَ: تخلطون، أو تسترون.

وَجْهَ النَّهَارِ: أوّل النهار.

وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ: أي لا تصدّقوا إلا لمن كان على ملّتكم.

أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَـا أُوتِيتُمْ: أي ولا تُصدّقوا أن يُؤتى أحـدٌ مثل ما أُوتيتم من الفضائل.

يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ: يغلبوكم عند ربّكم بالحجة.

وَاللهُ وَاسِعٌ: أي ذو سعة بفضله وإحسانه.

ضلال اليهود وسعيهم لإضلال غيرهم

لمّا بيّن القرآن فيما سبق طريقة أهل الكتاب في العدول عن الحقّ والإعراض عن قبول الحجة ببيان صحة الإسلام، بيّن في الآيات التالية أنهم لا يقتصرون على ضلالهم بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول محمد ﷺ ويسعون إلى صَرْفِهم عن دين الإسلام، قال الله تعالى:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي تمنّت جماعة من أهل التوراة من اليهـود، وأهل الإنجيل من النصارى لـو يصدّونكم أيها المؤمنون عن الإسـلام ويردّونكم إلى ما هم عليه من ضلال فيهلكونكم بذلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ﴾ وهم بمحاولتهم إضلالكم ما يُضِلّون إلّا أنفسهم وبالتالي يُهلكونها بسبب سـخط الله عليهم ونزول عقابه بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يعلمون أن هذا يضرّهم ولا يضرّ المؤمنين.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ﴾ خاطب الله أهل الكتاب بصيغة استفهام إنكاري توبيخًا لهم بقوله: لماذا تجحدون آيات الله؟وآيات الله: المراد بها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل وفيها البشـارة بمجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على النبـيّ محمد، ولكنهم يجحدون ذلك وينكرونـه، وقيل: المراد بآيات الله آيات القـرآن حيث يجحدون أنها من عنـد الله ﴿وَأَنْتُمْ تَشْـهَدُونَ﴾ وأنتم يـا علماء أهل الكتـاب تُنكرون أن القرآن هو من عند الله أمام العوام من ملّتكم، مع أنكم في قرارة نفوسكم تشـهدون بأن القرآن هو من عنـد الله لكونه معجزًا بفصاحته وبلاغته ومعجزًا بتشريعه وهديه، وأنه الحق من ربكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُـونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِـلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي لماذا يا أهـل الكتاب تخلطون الحـق بالباطل بتحريفكـم آيات التوراة

والإنجيل وتأويلكم إياها على غير حقيقتها؟ ولماذا تكتمون الحق في شأن محمد الذي بشّرت به كتبكم؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بأن محمدًا هو رسول الله حقًّا وأن ما جاء به من القرآن هو وحي أوحاه الله إليه.

ثم يذكر القرآن ما تآمر به اليهود لتشكيك المسلمين بدينهم:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ فقد تواطأ اثنا عشر رجلًا من أحبار اليهود وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النار ـ باللسان دون الاعتقاد ـ ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم أعلنوا كفركم آخر النهار، وقولوا للمسلمين إنّنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أنّ محمدًا ليس بذاك النبيّ الذي وَصَفَتْهُ التوراة وبشّرت بمجيئه، وظهر لنا بطلان دينه فرجعنا عنه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحاب محمد في دينهم ورجعوا عنه. ولكن هذه الشبهة لم تَلْقَ آذانًا صاغية من المسلمين ولا استجابة لمؤامرة اليهود الدنيئة، بل ظل المسلمون متمسّكين بدينهم غير مكترثين بكذبهم وافترائهم.

ثم تأتي الآية التالية تذكر ما جاء على لسان علماء اليهود لأتباعهم:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي ولا تُصَدِّقوا إلّا لِمَن اتبع دينكم فكان يهوديًّا ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ جملة معترضة من كلام الله سبحانه، أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن الهدى هو هُدى الله الذي أوحاه إليّ من القرآن. ويتابع علماء اليهود قولهم لأتباعهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ ولا تُصَدِّقوا بأن يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من الفضائل والكرامات، وهذا القول كناية منهم عن نفي النبوّة عن محمد ﷺ ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أو أن أحدًا يستطيع أن ينازعكم ويبادلكم الحجة عند ربكم لأن دينكم خير الأديان.

وهناك وجه آخر في تفسير الآية بأنها جاءت خطابًا للمؤمنين من الله سبحانه على جهة التثبيت لقلوبهم، فيكون المعنى: لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين الذين اتّبَعوا رسول الله محمدًا إلّا من اتّبع دينكم من المسلمين، والإسلام هو الهدى الذي خصّكم الله به، ولا تُصَدِّقوا أن يُؤتى أحَدٌ مِثلَ ما أُوتيتم من الفضل والدّين، ولا تُصَدِّقوا أن يغلبكم أحَدٌ بإظهار الحجّة عليكم عند ربكم لأنكم على الدّين الحق.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والمراد بالفضل هنا: النبوّة والهداية وأصل الفضل في اللغة: الزيادة، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن النبوّة والهداية هي بيد الله يعطيها لمن يشاء من عباده ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سبحانه واسع الفضل، عليم بمن يتفضّل عليه ويخصّه بفضله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والرحمة المقصودة هنا هي: الإسلام والقرآن والنبوّة ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وقد وصف الله فضله بالعِظَم، لأنه لا شبيه له في جلاله وكرمه وعطاآته، ولا عظمة تساوي عظمة فضل الله على خلقه.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم
مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا
يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

شرح المفردات

بِقِنطَارٍ: المراد به المال الكثير.

إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا: أي ملازمًا له تطالبه وتقاضيه باستمرار.

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ: أي ليس علينا ذنب وملامة في أكل أموال الأمّيين، والأُمّيّ هو الذي لا يحسن القراءة والكتابة، والمقصود بالأميين هنا العرب.

يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ: يستبدلون بعهد الله وهو ما عاهدوا الله عليه من أداء الأمانة.

وَأَيْمَانِهِمْ: جمع يمين وهو الحلف بالله.

لا خَلاقَ لَهُمْ: لا نصيب لهم من الخير.

وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: لا يُحسن إليهم ولا يرحمهم.

وَلا يُزَكِّيهِمْ: أي لا يُطهّرهم من الذنوب بالمغفرة أو لا يُثني عليهم بجميل.

يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ: يُحرِّفون كتاب الله ويميلون به عن معانيه الصحيحة.

بعض مساوئ اليهود وتحريفهم لكتاب الله

ويتابع القرآن فيذكر جانبًا من أخلاق اليهود في معاملتهم للناس من غير دينهم وأنحراف بعضهم عن هدى الله حيث يستحلّون أموال الناس بغير حق مُتعلّلين بحججٍ واهيــة لا أصل لها في دين الله، وليس لها واقع سـليم بين الناس، قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ القنطار هنا: المراد به المال الكثير. والمعنى: من اليهود أُناس هم أهل أمانةٍ، لو ائتمنت أحدهم على المال الكثير يردُّه إليك كامـلًا ولا يخونك فيه ﴿وَمِنْهُمْ مَـنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَـا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًـا﴾ أي ومن اليهود من يخون الأمانة، إن تأمنه على دينار واحد لا يردّه إليك عند طلبه إلا بالإلحاح الشديد والملازمة والاستمرار في الطلب.

فالآية بيَّنت قسمين من اليهود كان العرب يتعاملون معهما:

القســم الأول: كأمثال عبد الله بن سـلام الذي كان يهوديًّا، ثم أسلم فيما بعد، فقد أَوْدَع رجل عنده حين كان على يهوديّته أَلْفًا ومائتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه كاملة. والقســم الثاني من كان يخـون الأمانة كأمثال فنحاص بن عازوراء فقد استودعه عربي قرشي دينارًا واحدًا فجحده.

وهؤلاء الذين كانوا يخونون الأمانة ويستولون على أموال الناس بالباطل يزعمون كما تقول الآية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا إثم وملامة في أكل أموال العرب الأُمّيّين. وسُمِّي العرب بالأُمِّيين

لأنه لم يكن عندهم علم بالقراءة والكتابة، وكانت تغلب عليهم الأُمّيّة وهي الجهل بالقراءة والكتابة، أو كان اليهود يريدون بذلك أن من كان على غير دينهم فهو أُمّيّ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين كانوا يجحدون الأَمانات ويستولون على أموال الناس بالباطل ويقولون ليس علينا حرج ولا إثم في أكل أموال الأُمّيين هم بذلك يفترون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون، لأنهم ليس عندهم نص صريح في كتبهم يبيح لهم خيانة الأمانة.

والكلام عن الأمين والخائن عند اليهود جاء بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ فلم تَرْمِ الآية اليهود جميعًا بالخيانة، وهو من الإنصاف الذي يتحلّى به القرآن.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ بلى: معناها إثبات ما نفوه من أنه ليس عليهم سبيل في خيانتهم للأمانات، أي عليكم حرج وإثم، ثم يستأنف القرآن الكلام بقوله: ومن وفى بعهد الله فآمن برسوله محمد ﷺ واستقام في معاملة الناس وأدّى الأمانات إلى أصحابها، وأتقى الله فيما نهاه عنه وعمل بما أمره به ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ الله يحب الذين يُوفون بعهدهم ويؤدون الأمانات إلى أهلها .

وقد كان المسلمون يؤدون الأمانة ويترفعون عن أخذ أموال الناس بالباطل، فقد قال رجل لابن عباس: إننا نُصيب في الغزو من أموال أهل الذِّمّة(١) الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس، قال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلّا بطيب أنفسهم.

(١) أهل الذمة: أهل العهد، وسُمّوا بأهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

كما شدّد النبي محمد ﷺ على الوفاء بالأمانة وعدم خيانة من خانه فقال: «أَدِّ الأَمانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ»(١).

ثم يُبيّن القرآن مصير الذين لا يوفون بعهد الله بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يشترون: يستبدلون، والمراد بعهد الله كل ما يجب الوفاء به بما فرضه الله على عباده، من ذلك ما أوجبه الله على أهل الكتاب من التصديق بنبوّة محمد الذي يجدون صفته في التوراة والإنجيل، وما أوجب على الناس من أداء الأمانات إلى أهلها، ولكن الذين يستبدلون الإيمان بنبوّة محمد بالجحود لنبوّته، ويستبدلون أداء الأمانات إلى أصحابها بالخيانة لها، ويُقْسِمون على ذلك لتأكيد ما هم عليه من جحود وخيانة مقابل ثمن زهيد من متاع الدُّنْيَا ﴿أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي لا حظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ أي كلامًا ينفعهم ويسرّهم ﴿وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يرحمهم ولا يُحسن إليهم ولا ينيلهم خيرًا يوم القيامة ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب مؤلم موجع على ما اقترفوا من المعاصي.

روي في أسباب نزول الآية أن الأَشْعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدّمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: أَلَكَ بيّنة؟ قلت: لا، فقال لليهودي: احْلِفْ، قلتُ: يا رسول الله إذاً هو يحلف فيذهب بمالي، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ ...﴾ الآية، ويقول رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلى

(١) أخرجه الترمذي.

يَمِينٍ لِيَقْتَطِعَ بها مَالَ امرئٍ مُسْلِمٍ هو فيها فاجِر[1]، لَقِيَ الله وهو عليه غَضْبان»[2].

وقيل نزلت الآية في أحْبارٍ من اليهود عُهِدَ إليهم في التوراة تبيين صفة النبي محمد ﷺ، فحرَّفوا التوراة وبدّلوا صفة النبي محمد وأخذوا الرّشوة على ذلك.

ويمضي القرآن في الكلام عن اليهود بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ أي من أهل الكتاب جماعة والمراد بهم يهود المدينة المنوّرة يحرّفون كتاب التوراة ولا ينطقون به على الوجه الصحيح بل يميلون بألسنتهم إلى تغيير كلماته وتبديل معانيه ليتجهوا إلى معانٍ ليست فيه. والملفت للنظر أنَّ القرآن لم يعمّم حكمه على اليهود بل نسب التحريم والتبديل إلى جماعة منهم، وهذا من عدالة القرآن الذي اختص به كما سبق **﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾** أي لتحسبوا أيها المسلمون ما حرَّفوه من التوراة وما بدّلوه فيها هو من كتاب الله الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، والحق أنّ ما قاموا به من تحريف ليس من كتاب الله.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ أي وزيادة في افترائهم أنهم ينسبون ما حرَّفوه بأنه مُنزَلٌ من عند الله وما هو في الحقيقة من عند الله **﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** فهم لا يفترون الكذب على بشر بل إنهم يكذبون على الله علاّم الغيوب الذي يعلم ما تنطق به ألسنتهم وما تُخفيه صدورهم، هذا وإنَّ الكذب في حق الله من أعظم الافتراءات التي توجب أشدّ العذاب من الله تعالى.

---

(١) فاجر: هو من مال عن الحق وعدل عنه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ
يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ
بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ
أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم
مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن
كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟
أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٨٢) ﴾

شرح المفردات

الْحُكْم: الحكمة، وهي إصابة الحق.

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ: أي منسوبين إلى الرَّبِّ بالتمسك بدينه وطاعته، وكونوا فقهاء في الدين تعلِّمونه للناس.

تَدْرُسُونَ: تقرأون كتاب الله.

مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: الميثاق هو العهد المؤكد الذي أخذه الله على النبيين.

أَأَقْرَرْتُمْ: هل اعترفتم والتزمتم به؟

وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي: أي قَبِلْتم عهدي وميثاقي.

العهد الذي أخذه الله على الأنبياء

ولمّا بيَّن القرآن أن عادة بعض علماء أهل الكتاب تحريف الكتب المنزلة على رسل الله وتبديلها أتبع ذلك ببطلان نسبة الألوهية للأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية الناس:

فقد روي أن فئة من أحبار اليهـود، وفئة من نصارى نجران اجتمعتا عند رسول الله محمد ﷺ فدعاهم إلى الإسـلام، فقال أحدهم: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسـى ابن مريم؟... فقال رسـول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبـادة غير الله! ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أُمِرْتُ. فأنزل الله قوله:

﴿مَا كَانَ لِبَشَـرٍ أَنْ يُؤْتِيَـهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْـمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي لا ينبغي ولا يستقيم عقلًا لبشـر أعطاه الله الكتاب الذي فيه شريعة الله التي يحكم بها بين الناس، وأعطاه الحُكْمَ: أي الفهم والعلـم والصواب في القول والعمل، وخصّه الله بالنُّبوّة ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُـوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي فهل من المعقول أن يتنكّر هـذا النبي لربّه ويقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله تخصّونني بالعبادة والألوهيّة؟

ولكن الذي يسـتقيم مع المنطق أن يقـول هذا الذي خصّـه الله بالنبوّة أن يقول لقومه ﴿وَلَكِـنْ كُونُوا رَبَّانِيِّيـنَ﴾ أي كونوا منسـوبين إلى الربّ بالتمسّـك بدينه وطاعته وتعلّم شـريعته ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُـونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بمقتضى ما علّمكم الله من علم الكتاب المُنزل عليكم وما تدرسونه منه ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ ولا يأمركم الله أن تجعلوا الملائكة والنبيين آلهةً تعبدونهم من غير الله. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الهمزة في كلمته ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ استفهام معناه الإنكار،

أي لا يقول أحد بعبادة الملائكة والنبيّين، أيأمركم نبيّكم بجحود وحدانيّة الله والوقوع في الكفر بعد إذ أنتم منقادون له بالطاعة متذلّلون له بالعبوديّة؟

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي واذكروا يا معشـر أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكَّد على النبيين الذين أعطاهم الله الكتاب الذي فيه شـريعة الله التي يحكمون بها، وأعطاهم الحكمة وهي العلم النافع وحُسـن التدبير ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ﴾ ثم جاءكم أيها النبيّون رسـول مـن عند الله مصدّق لِمَا معكم مـن كتاب أنزلته عليكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فالله سـبحانه أخذ العهد على جميع الأنبياء من لدن آدم إلى عيسـى عليه السلام أن يصـدّق كل نبيّ بمن يأتـي بعده من نبيّ وينصره إن أدركه، وهذا التصديق يسري على أتباعهم.

ومن الأئمة من قال: إن المراد بالرسـول في الآية هو محمد ﷺ كما نُقِلَ عن الصحابة عليّ وابن عباس رضي الله عنهم، وعلى هذا يكون المعنى: واذكروا إذ أخذ الله العهد على النبيّين أجمعيـن أن يصدّقوا بنبوّة محمد وينصروه إنْ أدركوه، كما أمرهم أن يأخذوا بذلك العهد على أُممهم.

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُـمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْـرِي﴾ أخذتم: الأخذ هنا بمعنى القبول، والإِصْرُ: العهد المؤكّد. أي قـال الله للأنبياء: هل اعترفتم بهذا العهد المؤكّـد وقَبِلْتُم به وأخذتم العهد على أتباعكم أن ينفّـذوه؟ فثمّة إذًا عهدان: عهد الله على النبيّين، وعهـد النّبيّين على أتباعهم ﴿قَالُـوا أَقْرَرْنَا﴾ أي قال الأنبياء: اعترفنا بذلك يا ربّ وقبلنا عهدكَ، فرَدَّ اللهُ عليهم ﴿قَالَ فَاشْـهَدُوا﴾ أي فاشـهدوا أيها الأنبياء على أتباعكم بأنكم أخذتم عليهم تلك العهود بأن يؤمنوا بالرسـول الذي يجيء مصدّقـا لِمَا معكم، ثم أكّد الله تلك الشـهادة بشـهادته بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأيُّ شـهادة أعظم وأجلّ من شهادة الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي فمن أعرض بعد ذلك عن الإيمان بمحمد ونُصرته وتأييده، فأولئك هم الذين خرجوا عن دين الله وطاعتهم له.

فبمقتضى هذا العهد الذي مرّ ذِكْرُهُ يُفهم منه أنّ دين الله واحد غايته إسعاد البشرية جمعاء، فكل رسول أرسله الله كان متممًا لما بدأ به الرسول والنبيّ الذي جاء قبله، حتى ختم الله النبوّة بمحمد[1]، فكان خاتم الأنبياء، لذا كان على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه على النبيّين أنْ يصدّقوا بنبوّة محمد وينصروه ويتّبعوا ما جاء به من الهدى.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(١) جاء في القرآن ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وهذه حقيقة لا ريب فيها، وها قد مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا ولم نسمع بمجيء نبي بعد محمد ﷺ.

شرح المفردات

يَبْغُونَ: يطلبون ويرغبون.

وَلَهُ أَسْلَمَ: ولله سبحانه استسلم وانقاد وخضع.

طَوْعًا: اختيارًا.

الأَسْبَاط: أولاد يعقوب، وأحفاده.

وَمَنْ يَبْتَغِ: ومن يطلب.

جميع أنبياء الله هم مسلمون

وبعد أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يصدّقوا من يأتي بعدهم من الأنبياء وينصروهم، بيّن الله بعد ذلك أن الإعراض عن دين الله هو مخالف للنواميس الإلَهية التي أودعها الله في طبيعة البشر، قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أيطلبون دِينًا غير دِين الله وهو الإسلام ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وقد خضع لله وانقاد له كل من في السماوات والأرض طوْعًا، والطوْع: الانقياد بسهولة، والكَرْهُ: الانقياد بمشقّة وإباء من النفس. هذه الآية نزلت حين اختصمت فئة من اليهود مع فئة من النصارى إلى رسول الله محمد فقالوا: أيُّنا أحقّ بدين إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «كِلا الفريقين بريئين من دين إبراهيم» فقالوا لرسول الله: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدِينِك.

هذا وإن الأجرام السماوية أسْلَمتْ لله طوْعًا وكَرْهًا بموجب النواميس الإلَهية التي وضعها الله في الكون ولا يمكن التفلُّت منها، وأما أهل الأرض فمنهم من خضع لله طوْعًا كالأنبياء والمؤمنين، وبعضهم خضع لله كَرْهًا كالكافر الذي ينقاد له كرهًا في جميع ما يقع عليه قضاء الله، ولا يمكن دفع قضاء الله وقدره. كالموت، والمرض وأشباه ذلك.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وإلى اللهِ تصيرون أيّها الناس بعد مماتكم فيجازيكم بأعمالكم، المحسن منكم يجزيه بإحسانه، والمسيء منكم يجزيه بإساءته، وهذا وعيد عظيم من الله لكل من خالف أمره وخرج عن طاعته.

ثم أمر الله نبيّه محمدًا وأتباعه أن يؤمنوا بمن سبقهم من الأنبياء:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ قل يا محمد لأهل الكتاب: آمنتُ أنا وأتباعي بوجود الله ووحدانيّته وأطعناه فيما أمرنا به ونهانا عنه، وآمنّا كذلك بالقرآن الذي أنزله الله علينا وفيه شريعة الله التي تهدي إلى الحق والرّشاد ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وآمنّا أيضًا بهؤلاء الأنبياء وما أُنزل عليهم من كتب وصحائف فيها أوامر الله ونواهيه. والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وأحفاده، والمراد بما أنزل على الأسباط ما أنزل على ذرّيتهم من الأنبياء كداود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وآمنّا بما أُنزل على موسى وعيسى والأنبياء من الكتب الإلَهية وبما أيّدهم الله من المعجزات الدّالة على صدقهم ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ لا نفرّق بين جماعة رسل الله والأنبياء في الإيمان بهم، فنؤمن ببعض وننكر البعض الآخر كما فعل اليهود حيث أنكروا نبوّة عيسى ومحمد، وكما فعل النصارى حيث أنكروا نبوّة محمد ﷺ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن للهِ خاضعون منقادون له بالطاعة والعبوديّة.

فالإسلام ليس دينًا جديدًا، ولكنه هو الدين الذي أنزله الله على الرسل الذين جاءوا قبل رسالة محمد ﷺ، والأنبياء جميعهم أطلق عليهم القرآن صفة الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد والخضوع لله، ورسالة الأنبياء والرسل واحدة تتفق في الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ كل مظاهر الإشراك بالله، أما شرائع رسل الله فتختلف حسب اختلاف الأمم وتطورها. ثم ختم الله الأنبياء بالنبي محمد ﷺ وأعطاه شريعة كاملة تصلح لكل الأمم ولكل زمان ومكان.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾ ومن يتخذ دينًا غير دين الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فلن يَقبَلَ الله منه هذا الدِّين ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهو يوم القيامة من الذين وقعوا في الخسران لأنهم خالفوا ما أمرهم الله به من اتّباع رسوله محمد.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦) أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ (٩٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٩١) لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٩٢)﴾

شرح المفردات

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا: أي لا يهدي الله هؤلاء القوم.

الْبَيِّنَاتُ: الحجج الظاهرة.

لَعْنَةَ اللهِ: هي الطرد من رحمته.

وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ: ولا يُمهلون ولا يؤخّر عنهم العذاب.

الْبِرُّ: هو الإحسان وكمال الخير.

مغبّة الكفر بعد الإيمان

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم كفروا بعد إيمانهم، مبيّنًا ما يترتب على ذلك من سُخْط الله عليهم واستحقاقهم عذابه في الآخرة، قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي كيف يُرشد الله للصواب ويوفّق للإيمان قومًا جحدوا نبوّة محمد ﷺ بعد تصديقهم إياه. والذين كفروا قيل: هم عشرة رهط[1] ارتدُّوا بعدما آمنوا بالرسول محمد ولحقوا بالمشركين بمكة، وقيل: هم يهود بني قُرَيْظة والنضير، فاليهود رأوا صفة محمد في التوراة من خلال ما جاء فيها من المبشرات عن مجيء نبيّ، وكانوا يقولون للمشركين العرب: سيأتي نبيّ قَرُبَ زمانه ونتّبعه ونقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فلمّا بعث الله محمدًا نبيًّا من العرب وهو من غير ملّتهم حسدوا العرب وأنكروا نبوّته **﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾** أي وبعد أن شهدوا في قرارة أنفسهم بأن محمدًا رسول الله حقًّا لما رأوا مِنْ صفاته التي تنطبق على ما جاء في التوراة **﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾** ومن بعد ما جاءتهم البراهين والحجج على أنّ محمدًا رسول الله حقًّا **﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** أي لا يُوفِّق للحق الجماعة الظالمة، وقد أطلق الله عليهم صفة الظالمين لأنهم أنكروا الحق بعد أن عرفوه. فالآية تقرّر حقيقة ثابتة وهي أن النفس التي تشهد بالحق وتؤمن به ثم تكفر به عن عصبيّة لا يُرجى لها هداية.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم جزاؤهم أن يطردهم الله ويبعدهم عن رحمته

(١) رهط: الرَّهْطُ من الرجل قومه وقبيلته.

كما تلعنهم الملائكة والناس أجمعون وتدعو الله أن ينزل بهم أشد العقاب **﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾** ماكثين أبدًا في عذاب جهنم لا يخفف عنهم من العذاب شيء في حال من الأحوال **﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾** ولا يؤخّر عذابهم ولا يُمهلون لمعذرة يعتذرون بها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلّا الذين تابوا من كفرهم وآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، واتّبعوا ما جاءهم به الرسول من عند ربهم، وأصلحوا أعمالهم، إنهم إذا قاموا بذلك **﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** أي غفور لذنوبهم فلا يعذّبهم بها، رحيم متعطف عليهم بالرحمة منه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ روي أن هذه الآية نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرًا حينما كفروا بمحمد، أو ازدادوا كفرًا بالذنوب التي اكتسبوها، أو تكرّر منهم الكفر بعد الإيمان، فهؤلاء **﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** فالله سبحانه لا يقبل التوبة من قوم أصرّوا على الكفر، لأنه لم يصحّ منهم العزم على تركه، بينما يَقبلُ الله التوبة منهم إذا رجعوا إلى إيمانهم وندموا على كفرهم وعزموا على أن لا يعودوا إليه **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾** أما الذين استمروا على كفرهم فهم الذين ضلّوا عن سبيل الحق وتركوا هدى الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إنّ الذين جحدوا نبوّة محمد ولم يصدّقوا به ولا بما جاء به من عند الله وماتوا على ذلك الجحود لنبوّته وما جاء به من عند الله **﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾** فلن يَقبل الله من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا على فرض أنه يملك ذلك وبذله للخلاص من عذاب الله الآتي ذكره بقوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** أي أولئك الذين ماتوا وهم كفّار لهم عذاب شديد الإيلام وليس لهم من ناصر يدفع عنهم عذاب الله أو يخففه.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والبِرُّ: فعل كل خير من أيّ جنس كان والتوسّع فيه، وقيل: البِرُّ هو التقوى، وقيل: هو الجنة، والمعنى: لن تكونوا أبرارًا تستحقون به ثواب الله وتصبحوا من زمرة المتقين الذين وعدهم الله بالجنّة حتى تُنفِقوا ممّا تُحبّون من أجود ما تملكون دون أرذله في وجوه الخير، ومجال الخير واسع وهو ما ينفع عباد الله المحتاجين وينشلهم من حافة الفقر والحرمان، والتعبير في الآية ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما: أصلها من ما، وهذا يؤذن بمشروعية إنفاق البعض دون الكل.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي ومهما تتصدّقوا به من طيّبات ما تقتنون فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه، ومما جاء في القرآن في معنى هذه الآية قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

فالإنفاق من الطيبات دليل على سخاء النفس لوجه الله، وفي ذلك تطهير للنفس مما لامسها من الشح، وفي ذلك صلاح عظيم للأمة كما قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فالإسلام في دعوته للإنفاق من الطيبات يهدف إلى التقارب بين الأغنياء والفقراء وبذلك تشتد أواصر الأخوّة فيما بينهم، وينتفي الحسد والكراهية من قلوب الفقراء، بينما الإنفاق مِنَ الأمور التي تعافها النفس ولا تريده فيه معنى الأنانية والشحّ والتعالي على الناس والاستئثار بملذات الحياة وهذا أمر لا يريده الله من المؤمنين.

﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ
فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ
مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ
الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾

شرح المفردات

حِلًّا: حلالًا.

إِسْرَائِيلَ: هو النبي يعقوب عليه السلام.

فَاتْلُوهَا: فاقرأوها.

افْتَرَىٰ: اختلق.

مِلَّةَ: شريعة.

حَنِيفًا: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق.

بِبَكَّةَ: من أسماء مكة.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ: هو الحَجَر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة.

الحلال والحرام من الأطعمة لبني إسرائيل

ثم ينتقل القرآن إلى الردّ على اليهود فيما يثيرونه من شبهات حول الإسلام وصحة نُبوّة محمد حيث أحلَّ الإسلام أكل لحوم الإبل بينما هي في نظرهم محرّم أكلها، ولذلك قالوا للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك على ملّة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها؟ فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلالًا لإبراهيم ونحن نحلّه، فقالت اليهود: بل كان ذلك حرامًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله تكذيبًا لهم:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي كل أنواع الطعام والمأكولات كانت حلالًا لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، فقد روي أنه كان يشتكي من مرض النَّسا[1] ويقاسي منه أشد الآلام فنذر لله إن شفاه الله من سَقمِهِ أن يُحرّم على نفسه أحب الطعام إليه وكان أحبّه إليه لحم الإبل وألبانها، فشفى الله يعقوب وحرّمها على نفسه وتبعه أولاده في تحريم ذلك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أي كان تحريم ذلك من إسرائيل قبل أن يُنزّل الله التوراة على موسى، أما بعد نزول التوراة فلم يبقَ هذا التحريم ساريًا بل حرّم الله عليهم أنواعًا كثيرة، فكانوا كلّما أتوا بذنب عظيم حرّم الله عليهم نوعًا من أنواع الطعام، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا[2] حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بالتوراة ويبيّنوا إذا كان فيها تحريم أكل لحوم الإبل: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إذا كان الحق في جانبكم بما ادَّعيتم أن الله أنزل تحريم ذلك في التوراة فأتونا بها واقرأوا تحريم ذلك علينا إن كنتم صادقين في زعمكم أنّ ما تحرِّمونه على أنفسكم

(١) النَّسا: عرق من الورك إلى الكعب.
(٢) هادوا: هم اليهود.

كان محرّمًا على نوح وإبراهيم. روي أنهم لم تبلغ بهم الجرأة على الإتيان بالتوراة لأن ذلك يسبب الفضيحة لهم والخذلان.

هذا وإنّ في استدعائهم أن يأتوا بالتوراة وتحدّيهم بأن يتلوا فيها آيات التحريم لهو الحجة الواضحة والبرهان الساطع على صِدْقِ نبوّة محمد ﷺ وهو الأُميّ الذي لا يعرف القراءة والكتابة ولا دَرَسَ التوراة. وبالرجوع إلى التوراة لم نجد فيها أساسًا لدعوى اليهود فيما ذهبوا إليه من أن تحريم أكل الإبل وألبانها شَرَعَهُ الله وأن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فمن اختلق الكذب على الله بعد قيام الحجّة على بطلان قولهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المتجاوزون الحق المُعْتَدون على حدود الله.

﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ قل يا محمد لهؤلاء اليهود: صَدَقَ الله فيما أخبر به من أن كلّ الطعام كان حلالًا لهم إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه وكان هذا التحريم قبل نزول التوراة، وإن إبراهيم عليه السلام ما حرّم أكل لحم الإبل ولا الشُّرب من ألبانها، وأن ما حرّم الله على اليهود في التوراة من الأطعمة كان جزاء لهم وعقوبة بسبب أفعالهم السيئة ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فاتبعوا ملّة الإسلام التي جاء بها النبي محمد ﷺ التي هي في الأصل ملّة إبراهيم عليه السلام، ومن اتّبع محمدًا فقد اتَّبع مِلّة إبراهيم، وكان النبي إبراهيم حنيفًا أي مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وكل من أسلم لأمر الله ومال إلى الاستقامة فهو حنيف ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما كان إبراهيم مشركًا بالله أحدًا بل كان موحّدًا له.

الكعبة أول بيت وُضِعَ لعبادة الله

ومن الشبهات التي كان يثيرها اليهود حول صحّة نبوّة محمد تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فقد ظلّ المسلمون يتوجهون في صلاتهم وهم في

مكة إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، وبعدها نزل الوحي الإلّهي على الرسول محمد ﷺ بالتوجّه إلى الكعبة، فرأى اليهود في ذلك منفذًا للطعن في الإسلام، وقالوا إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحقّ بالتوجّه إليه عند الصلاة لأنه وُضِعَ قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقِبلة الأنبياء، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكّة: هي مكة نفسها أُبدل حرف الميم فيها بباء[1]، وقيل: هما متغايران، فبكّة موضع البيت[2] ومكّة اسم البلد. والمعنى: إن أوّل بيت وُضِعَ في الأرض لعبادة الله وحده هو البيت الحرام بمكة[3]. وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله: أيّ مسجد وُضع على الأرض أولًا؟ قال: المسجد الحرام، قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة...»[4]

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وبيت الله الحرام في مكة كثير الخير والنفع لمن حجّه واعتمره وطاف حوله، وإنّ الطاعات يزداد ثوابها عنده، كما أنه قِبْلة يهتدي به المصلّون إلى جهة صلاتهم ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فيه علامات واضحة تبيّن شرف منزلته، فمن قصده بسوء أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل عندما أرادوا هدمه.

ومن الآيات البيّنات الموجودة فيه ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة وفيه أثر قَدَمَي إبراهيم بالرغم من صلابته، وقيل: مقام إبراهيم هو الحرم كله، وقيل أيضًا: هو كل مواقف الحج.

(١) والعرب تُبدِلُ الميم بالباء في مواضع كثيرة، وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام لازدحام الناس من حول البيت للطواف حوله.

(٢) يطلق اسم البيت هنا على الكعبة كما يطلق عليه اسم البيت الحرام، والمسجد الحرام.

(٣) قيل: إن أول من بنى البيت الحرام آدم وجدَّد بناءه إبراهيم عليه السلام.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

ومن الآيات البيّنات: حصول الأمن فيه ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقد كانت العرب في الجاهلية يتقاتلون، ويُغير بعضهم على بعض، ومن دخل حَرَمَ مكة أَمِنَ من القتل، أما في الإسلام فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه إذا قَتَلَ شخص شخصًا في غير الحرم ثم دخل الحرم لم يقتصّ منه ما دام فيه ولكنه لا يُبايع ولا يُؤاكل إلى أن يخرج من الحرم فيقتصّ منه، وإن قَتَلَ في الحرم قُتِلَ، وقال مالك والشافعي: يُقتصّ منه حتى ولو كان في الحَرَم.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ هذه الآية تنصّ على إثبات فرضيّة الحج حيث جاءت بصيغة الإلزام والوجوب، والحج قَصْدُ السفر إلى مكة لأداء عبادة الله، من طواف حول بيت الله الحرام، والوقوف بعرفة، والقيام بسائر مناسك الحج من الإحرام، والسعي بين الصفا والمروة، وغيرها من المناسك استجابة لأمر الله، والحج أحد أركان الإسلام الخمسة ويجب في العمر مرة واحدة، وشروطه: الإسلام، وأن يبلُغَ قاصده سنّ البلوغ، والعقل، والحرية ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ والاستطاعة هي القدرة على نفقات الزاد وآلة الركوب ذهابًا وإيابًا ونفقة الإقامة زمن الحج، ويدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن وأن تكون الطريق إلى الحج آمنة، وقد أصبح الطريق إلى مكة آمنًا بفضل جهود المملكة العربية السعودية وولاتها الكرام ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي ومن جحد فرضيّة الحج وأنكرها ولم يؤدّها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غنيّ عنه وعن حجّه وعن الناس جميعًا.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ
(٩٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾

شرح المفردات

بِآيَاتِ اللهِ: آيات القرآن وفيها الدلائل على نبوة محمد ﷺ.

شَهِيدٌ: عالم بالشيء مطّلع عليه.

تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ: تَصْرِفُون الناس عن دين الله.

تَبْغُونَهَا عِوَجًا: تطلبون لملة الإسلام اعوجاجًا وميلًا عن الاستقامة.

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ: وأنتم تعلمون أن الإسلام حقّ.

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ: ومن يستمسك بدين الله الذي هو الإسلام.

محاولة اليهود الإيقاع بين المؤمنين والتفرقة بينهم

بعد أن بيّن الله أنَّ بيـت الله الحرام بمكة هو أول بيت أُقيم للناس لعبادة الله تعالى، وأنَّ الله فرض علـى الناس الحج إليه، وَبَّخَ بعد ذلك أهل الكتاب على كُفرهم وأساليبهم الخبيثة في إثارة الخلاف بين المؤمنين، وإيقاع الفتنة بينهم قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ﴾ أي قُل يا محمد لليهود والنصارى: لأي سـببٍ تكفرون بآيـات الله؟ والآيات هنا الآيـات القرآنية، والكفر بها هو عدم الإذْعان لأحكامها وإنكار صِدْقها، أو جحود ما في التوراة والإنجيل من حجج وبشارات تدل على نبوّة محمد ﷺ **﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾** وكلمة شـهيد من صِيَغ المبالغة، أي أنه سبحانه مُبالغ في الاطلاع على جميع أعمالكم وفي مُجازاتكم عليها، وهنـا وعيد من الله على كفرهم **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللهِ مَـنْ آمَنَ﴾** أُعيد الخطاب لأهل الكتـاب توبيخًا لهم وتقريعًـا، أي قل لهم يا محمـد: لماذا تحاولون صرف منْ آمن بالله ورسـوله محمد عن سـبيل الله وهو الإسـلام، وصدّهم عن الدخول فيه؟ **﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** تطلبـون لدين الله العوج والميل به عن الاستقامة **﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾** وأنتم تشهدون أن الإسلام هو دين الله الحق الذي لا تحوم حوله شـائبة اعوجاج **﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** تهديد ووعيد لهم لصرفهم الناس عن الإسلام، والله سبحانه لا يفوته شيء من أعمالهم.

رُوي في أسباب نزول هذه الآية وما بعدها من آيات:

أنّ رجلًا من اليهود حـاول الإيقاع بين قبيلَتَـيْ الأَوس والخزرج اللتين دَخَلَتا في الإسـلام، وهذا الرجل اسمه (شـاس بن قيس) وكان عظيم الكفر شـديد الحسـد للمسـلمين، فغاظه ما رأى بين الأَوس والخزرج من تآلف قلوبهم وصلاح ذات بينهم بعد أن كانت بينهم العـداوة والبغضاء والاقتتال في الجاهلية أي قبل الإسـلام. فأمر شـابًّا يهوديًّا كان معه بأن يجلس معهم ويذكِّرهم (يوم بُعاث) يوم اقتتلت الأوس والخزرج ويُنشدهم ما قيل فيه من الأشـعار ففعل، فتفاخر القوم وتغاضبوا إلى أن بلغ بهم الغضب إلى اللجوء إلى السـلاح وتهيأوا للقتال، فبلغ الخبر الرسـول محمـد ﷺ فخرج إليهم مع بعض أصحابه وقال لهم: يا معشر المسـلمين أتدّعون الجاهلية وأنا بين

أظهُركم بعـد أن أكرمكم الله بالإسـلام فترجعون إلى ما كنتـم عليه كفّارًا؟، فعلموا أنها نزغة من الشـيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السـلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضًا وانصرفوا مع رسول الله ﷺ.

فما فعله اليهودي (شـاس بن قيس) للتفريق بين المسلمين ودفعهم إلى الاقتتال يفعله أعـداء المسـلمين والصهيونيون اليوم في فلسـطين والدول العربيـة، فحريّ بالمسـلمين أن يجتنبوا كيدهم وأن يأخذوا درسًـا من تلك الحادثة فلا يجعلوا لأعدائهم سبيلًا لتفريق وحدتهم.

ثم يخاطب الله الأوْس والخزرج بعد هذه الفتنة العمياء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِيـنَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ناداهم الله بصفة الإيمان لتحريك عوامل الإيمان في قلوبهم ليكون منهم الحذر واليقظة ممـا يدبّر لهم من فتنة بينهم، فيقـول الله لهم: إن تطيعوا جماعة من أهل الكتـاب ـ وهم اليهود ـ فيما يبثّونه بينكم من دسـائس ومؤامـرات لإلقاء العـداوة والبغضاء بينكـم الذي يؤدي إلـى تقاتلكم ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ يصيّروكم بعد إيمانكم كافرين، ومعنى ذلك أن الفِرقة والتنازع والتباغض والتقاتل إن حصلت بينكم فهي مظهر من مظاهر الكفر.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ الاستفهام هنا للتعجّب، أي من الذي يتصـوّر أن يكون منكم كفر بعد أن اجتمعت كل الأسباب الداعية إلى الإيمان:

أولًا: أنكم تتلى عليكم آيات القرآن التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ وفيها كل منابع الخير لكم التي فيها سعادتكم وصلاح أمركم.

ثانيًا: أنّ بينكم رسول الله يُرشدكم إلى الهُدىٰ والصلاح وينهاكم عن الغيّ والضلال ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومن يلجأ إلى ربّه متمسّكًا بدينه فقد اهتدى إلى طريق الفوز والفلاح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٢) وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠٣) وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٤)﴾

شرح المفردات

حَقَّ تُقَاتِهِ: أي أن يُتقي الله اتقاء حقًّا ثابتًا بأن يُطاع فلا يُعصى.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ: وتمسّكوا بعهد الله ودينه وكتابه.

وَكُنْتُمْ عَلَى شَـفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ: شـفا الحفرة طرفها، أي وكنتم مُشـرفين على الوقوع في نار جهنم.

أُمَّةٌ: جماعة تربطهم رابطة جنس أو دين.

الْمَعْرُوف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حُسنه.

الْمُنْكَر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقُبحه.

دعوة إلى التكاتف حول الإسلام

وبعد أن بيَّن القرآن محاولة بعض اليهود زعزعة الوحدة بين المؤمنين والتفريق بينهم دعا بعد ذلك إلى الوحدة بين المؤمنين وحذَّر من الفُرقة فيما بينهم، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي يا معشر من صدّق الله ورسوله محمدًا اتّقوا الله بطاعته وترك عصيانه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي اتقاء حقًّا ثابتًا بأن يُطاع الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ولا تموتنّ ـ أيها المؤمنون ـ إلّا وأنتم خاضعون لربّكم مُذعنون له بالطاعة، مُخلصون له العبادة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ والاعتصام: التمسك بالشيء. والحبل كما هو معروف يستعمل للرّبط أو للتدلي أو الإمساك به للنجاة من الخطر، كما أن الحبل يأتي بمعنى مجازي وهو العهد والأمان، وقد فُسّر الحبل هنا بدينِ الله أو القرآن، والاعتصام بحبل الله هو التمسّك بدينه وترك الفُرقة واتّباع القرآن، فإنه أمان للمسلمين من عذاب الله وعقابه. وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «القرآنُ حَبلُ اللهِ المتينُ لا تَنْقَضي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ عن كَثرة الرّدّ[١]، مَن قال به صَدَق ومن عمل بِهِ أُجِرَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم»[٢].

والملفت للنظر قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ في التمسّك بدين الله، أي كونوا جميعًا متمسّكين بحبل الله لأن الأُمّة الإسلامية طائفة واحدة متضامنة لا تقبل التجزئة والتفرقة، أو بمعنى: خذوا شريعة الله كلها في نظام حياتكم

(١) أي لا يبلى ولا تزول لذة قراءته من كثرة ترداده.

(٢) أخرجه الترمذي.

ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا[١]﴾ أي ولا تتفرقوا في الدِّين كما تفرّق كلٌّ من اليهود والنصارى في أديانهم، أو كما كنتم مُتفرِّقين في الجاهلية قبل الإسلام يُعادي بعضكم بعضًا وتتقاتلون لأوهى الأسباب.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ والنعمة التي يُذكّر الله بها المؤمنين هي نعمة الهداية إلى الإسلام الذي وحَّد بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداءً يتقاتلون فيما بينهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فجمع الله بين قلوبكم على الإيمان بعد أن كنتم أعداء متخاصمين ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فصرتم بنعمة الإسلام إخوانًا في الدِّين متحابّين لا ضغائن بينكم.

والجدير بالذكر أنّ الآية صرّحت بالقلوب ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ دلالة على أهمية القلوب، وأن عليها الاعتماد في بناء العلاقات بين الناس، فإذا تآلفت القلوب أدّت إلى المحبّة والتعاطف وبالتالي إلى القوّة والمنعة، وإذا تنافرت أدّت إلى العداوة والبغضاء، وبالتالي إلى الضعف والانحلال.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ والشفا: طرف الشيء وحرفه، وأشفى على الشيء: أشرف عليه. والمعنى: وكنتم مشرفين بكفركم على الوقوع في نار جهنم فجعل الله استحقاقهم لعذاب النار بسبب كفرهم وضلالهم كمن كان على طرف حُفرة من النار ومن كان على طرفها لا يتماسك عن الوقوع فيها ولكن الله أنقذهم منها بأن هداهم للإسلام ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بمثل هذا البيان الذي كنتم عليه قبل الإسلام، كذلك يُبيِّن الله لكم سائر حججه لتهتدوا إلى سبيل الرّشاد.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ فسّر بعض العلماء (مِنْ) في كلمة

(١) تفرّقوا: أصلها تتفرقوا بحذف التاء تخفيفًا.

(منكم) بأنها للتبعيض، أي عليكم ـ أيها المسلمون ـ إعداد جماعة منكم[(١)] تدعو إلى الخير وتسعى إلى تنفيذه، والخير ضد الشر وهو كل أمْرٍ نافعٍ في الدنيا ويُعطى ثوابه في الآخرة كإنشاء دور التعليم والمستشفيات وبيوت العجزة، ورعاية حقوق الفقراء ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمعروف: ما استحسنه شَرْعُ الله والعقل السليم، والمُنكر: هو كل فِعْلٍ تحكم العقول السليمة بقُبحه وشرِّه، ومعلوم أن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُشترط فيها العلم بالحلال والحرام، فمن الثابت أنَّ هذا التكليف مُوجَّهٌ إلى العلماء المتفقِّهين في الدّين، فإنَّ الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف.

ويرى فريق من العلماء أن (مِنْ) في الآية ليست للتبعيض بل للبيان، بمعنى: كونوا أُمَّة دُعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر لأنَّ الله أوجب ذلك على كل الأُمّة كما جاء في القرآن في وصف المسلمين الأولين:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وجاء في القرآن ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فالله سبحانه أهلك الذين عملوا السوء ولم ينهوا عنه، وأنجى الذين ينهون عنه، فجعل الله سبحانه الممتنعين عن نهي الظالمين عن ظلمهم مع الظالمين في العذاب.

ويقول الرسول محمد ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكرًا فَلْيُغَيّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ»[(٢)].

(١) تأمّل كيف دعا الله إلى إعداد جماعة من المسلمين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الجماعة لها القدرة على الوقوف في وجه المفسدين. أما الفرد فقد يتعرض للأذى ولا يستطيع كبح أهل المنكر عن منكرهم.

(٢) أخرجه الترمذي.

ثم ختم الله هذه الآية بقوله ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الظفر والفوز، وإدراك ما يبتغيه الإنسان من نيْل رضاء الله والحياة الطيّبة في الدنيا والنعيم في الآخرة، وهذا يتحقق للذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾

شرح المفردات

الْبَيِّنَاتُ: الحجج والأدلّة الواضحة.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ: أي يوم القيامة تُسَرُّ وجوه وتفرح.

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ: تكتئب وتحزن.

فَفِي رَحْمَةِ اللهِ: أي في جنّته وكرامته.

تُرْجَعُ الْأُمُورُ: أي تصير أمور الخلق إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم.

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لا يحصل إلّا بعد تمام الألفة والمحبّة بينهم، لذا حذّرهم الله من الفُرْقَةِ والاختلاف حول دينهم لكي لا يصير ذلك سببًا لعجزهم عن القيام بهذا الأمر الجليل، قال الله تعالى:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

نهى الله سبحانه المسلمين عن التفرُّق والتّنازع والاختلاف حول دينهم وأن لا يكونوا كالذين سبقوهم من المِلَل حيث تفرَّقوا شِيَعًا وأحزابًا كل طائفة تُكفِّر الأخرى بسبب تأويلاتهم المختلفة لنصوص دينهم، من بعدما جاءتهم الحجج الواضحة المبيّنة للحقّ، والموجبة لعدم التفرقة والاختلاف **﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** وهذا إنذار للمؤمنين كي لا يقعوا في التفرُّق والاختلاف حول دينهم، لأن هذا التفرُّق يؤدّي إلى عذاب الآخرة.

ثم يخبرنا الله سبحانه بما يكون عليه مظهر المؤمنين والكافرين يوم القيامة: **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾** فبياض الوجوه هو تعبير مجازي عن الفرح والسرور، وسواد الوجوه هو كناية عن الغمّ والحُزْن، وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيضّ وجهه بما يظهر عليه من الفرَح والغبطة، كما يقال لمن أصابه مكروه: اربدّ وجهه[1] وتبدّلت صورته من شدّة الحُزن والغمّ. وقيل إن البياض هو حقيقة ويحصل على وجوه المؤمنين، والسواد يحصل على وجوه الكافرين. فالمؤمن يشعُّ البياضُ في وجهه فيعرف الخلائق أنه من الذين نالوا رضى الله واستحقوا نعيم الآخرة، كما يظهر السواد في وجه الكافر العاصي ربه الذي استحقّ عذاب النار.

(١) اربدّ وجهه: احمرّ حمرة فيها سواد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وجواب (أمّا) محذوف تقديره: فيُقال للذين اسودَّت وجوههم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أكفرتم وجحدتم الحقَّ بعد إيمانكم؟ ولكن ما المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟ اختلف العلماء فيهم، فبعضهم قال: إنهم المنافقون وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم، وقيل: هم من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد قبل بعثته نبيًّا بناءً على ما جاء في كتبهم الدينية من البشارات على مجيئه، فلما بُعث نبيًّا أنكروه وكفروا به، وقيل: إن الخطاب في الآية يشمل جميع الكافرين الذين ارتدّوا بعد إيمانهم من غير تخصيص لفئة ما **﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** أي يُقال للذين كفروا بعد إيمانهم: ادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب فيها بسبب كفركم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وأما الذين أدركت قلوبهم معاني الإيمان وساروا على موجبه فهم في رحمة الله وهي الجنّة التي أعدّها لهم وفيها من أنواع النعيم ما تقرّ به أعينهم، وقد عبّر الله عن الجنّة هنا بالرَّحمة إشارة إلى أن دخول المؤمن إلى الجنّة هو بفضل الله ورحمته **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** والمؤمنون باقون في الجنّة أبدًا بلا نهاية.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي تلك آيات القرآن نُعَرِّفُك إيّاها يا محمد وهي متّصفة بالحقّ والعدل، وقد أسند الله التلاوة إليه مع أن التالي في الحقيقة الملك جبريل بأمر الله للتنبيه على شرف هذه الآيات **﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾** فالله سبحانه لا يُريد أن يظلم البشر ولا يقبل منهم أن يظلم بعضهم بعضًا، فالظلم أمر لا يليق بذاته ولا يُتصوّر حدوثه منه **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** أي له سبحانه ما في السّماوات من نجوم وكواكب وغيرهما من أجرام سماوية، وله ما في الأرض من كائنات حيّة

ونبات وماء وجماد، فهو سبحانه الخالق والمالك والمدبّر لِمَا فيهما ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وكلّ أعمال الناس راجعة إلى حُكمه وقضائه، فليحذر الذين يخالفون أمره من سوء المصير.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن
يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
(١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ
النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ
بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾

شرح المفردات

أَهْلُ الْكِتَابِ: هم اليهود والنصارى، والمراد بالكتاب كتاب التوراة وكتاب الإنجيل.

الْفَاسِقُونَ: الخارجون عن طاعة الله.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى: أي لن يضرّكم اليهود إلا ضررًا يسيرًا لا يعتدّ به كالسبّ والطعن والتهديد.

يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ: يُعطوكم ظُهورهم مُنهزمين.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ: أي أُحيطوا بها.

ثُقِفُوا: وُجدوا.

بَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له.

الْمَسْكَنَةُ: فقر النفس وشحّها.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا: أي بسبب خروجهم عن طاعة الله.

المسلمون كانوا خير الأمم

وبعد أن حذّر الله المؤمنين من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في التمرُّد والعصيان لربهم، خاطب الله أصحاب النبي محمد ﷺ الذين كانوا على أعلى مثال في التقوى والصلاح بقوله:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أنتم يا أُمّة الإسلام وُجِدْتُم خير أُمّةٍ ظهرت للناس، وهذه الخيريّة لِأُمّة الإسلام منوطة بتحقيق أمرين:

أولاهما: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والأمر بالمعروف هو ما كان معروفًا فِعْله بأنه جميل مستحسن تُقِرّه العقول السليمة، والنهي عن المنكر هو ما أنكره الله ورآه أهل الإيمان والعقول السليمة قبيحًا فِعْله.

ثانيهما: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي تؤمنون بأن الله واحد لا شريك له وتؤمنون بسائر صفاته الحسنة التي ذكرها القرآن، ولا تتوجهون بالعبادة إلى سواه.

والإيمان بالله هو منبع الفضائل، فهو سبحانه الذي حدّد للإنسان معاني الخير والشر، وبيّن الحلال من الحرام ووضع أسسًا لعلاقة الإنسان بربّه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ثم أوضح له غاية وجوده على الأرض، فالإيمان بالله هو الذي يُوجّه الإنسان إلى الالتزام بما شرعه الله لعباده من الخير.

هذه الصفات التي ذكرها القرآن إذا قام بها المسلمون يكونون خَيْرَ الأمم، فإذا انعدمت زالت عنهم الخيريّة.

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لو آمن أهل التوراة وأهل الإنجيل بنبوّة محمد ﷺ وصدّقوا بما جاء به من الهدى من عند ربه لكان ذلك خيرًا لهم في دُنياهم وآخرتهم ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي من أهل الكتاب المخلصون في عقيدتهم حيث صدّقوا بنبوّة محمد كعبدالله بن سلام وجماعته من اليهود، والنجاشي ملك الحبشة وجماعته من النصارى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وأكثر أهل الكتاب خارجون عن دين الله وطاعته.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي ما يُصيبكم أيها المسلمون من هؤلاء الفاسقين اليهود إلّا أذًى يسيرًا لا يُعتدّ به كمثل ما تسمعونه منهم من هجاء وطعن وشبهات على دينكم ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ وإن يقاتلوكم يفرُّوا منكم منهزمين، وعبّر القرآن عن انهزامهم بتوليتهم الأدبار وهي ظهورهم، لأن من ينهزم في ساحة القتال يولّي ظهره لعدوه فرارًا منه ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لليهود نصر عليكم أيها المسلمون.

وقد قاتل المسلمون بني النضير وبني قريظة ويهود خيبر فانتصروا عليهم، منهم من أجلاهم محمد ﷺ عن ديارهم بعد هزيمتهم وبعضهم قضى عليهم عندما غدَروا به كما حصل لبني قُرَيْظة.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ والضرب إيقاع شيء على شيء، والمراد أن الذِّلّة التصقت باليهود واحتوتهم ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أينما حلُّوا وحيثما وُجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ والحبل مستعار للعهد، وشُبّه العهد بالحبل لأن الناس يرتبطون بالعهود كما يقع الارتباط بين شيئين بالحبل، فالله سبحانه يبيّن بأن اليهود لا يُعانون الذِّلّة في حال وجود عهد من الله لهم وهو ما قرّره الإسلام من الأمان لهم في حال كونهم مُسالمين للمسلمين وهذا ما حصل، فحينما دخل الرسول محمد المدينة المنوّرة أعطاهم العهد فكانوا آمنين، فلمّا خانوا

العهد انقطع حبل الله عنهم ونزل بهم ما نزل من التهجير والقتل والسبي والذُّلّ ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ وهو ارتباطهم بدولة قوية تساعدهم وتدافع عنهم كما هو شأنهم الآن حيث تمدّهم بعض الدول الكبرى بالمال والسلاح الوفير وتدافع عنهم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا بغضب من الله، وهو كناية عن استحقاقهم له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ ولازمتهم الذّلة والتعاسة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الذي أصابهم كان بسبب أنهم كانوا يجحدون حجج الله الدالّة على صِدْقِ أنبيائه ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي وبسبب قتلهم أنبياء الله مثل زكريا ويحيى وغيرهما، ولكن هؤلاء اليهود المعاصرين للنبيّ محمد ﷺ لم يصدر عنهم قتل الأنبياء، ولكن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء، فلما كانوا راضين بفعلهم نُسِبَ ذلك الفِعْلُ إليهم، هذا مع العلم أنهم حاولوا قتل النبي محمد ﷺ، وألّبوا المشركين على محاربته والقضاء عليه مع من آمن به ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضَرْبِ الذِّلّة عليهم ورجوعهم بغضب من الله، إنَّ ذلك كان بسبب كفرهم وعصيانهم أوامر الله واعتدائهم على حدوده.

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن
يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن
تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

لَيْسُوا سَوَاءً: أي ليس أهل الكتاب متساوين في سلوكهم.

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ: منهم جماعة مستقيمة ثابتة على طاعة الله.

يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ: يقرأون آيات القرآن.

آنَاءَ اللَّيْلِ: ساعاته وأوقاته.

يَسْجُدُونَ: يُصَلُّون.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ: يبادرون إليها ويتنافسون فيها.

فَلَنْ يُكْفَرُوهُ: فلن يُجحد عملهم الخيّر ولن يُحرَموا ثوابه.

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ: لن تدفع عنهم أموالهم.

أَصْحَابُ النَّارِ: أهل النار يُعذّبون بها.

رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ: ريح شديدة البرودة.

حَرْثَ قَوْمٍ: زَرْع قوم.

أهل الكتاب فيهم الصالح والآثم

وبعد أن وصف الله سبحانه الفاسقين من أهل الكتاب بذميم الصفات وقبائح الأعمال، وذكر الجزاء على أعمالهم، بيّن الله سبحانه في الآيات التالية بأن أهل الكتاب ليسوا جميعًا متساوين في قبائح الأعمال، بل فيهم جماعة صالحة تسير على هدى الله، قال سبحانه:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ هذا القسم من الآية وما بعده من آيات نزل في من آمن من أحبار اليهود، كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد وغيرهما. والمعنى: ليس كل أهل الكتاب متساوين في الكفر والأعمال السيئة بل يوجد منهم جماعة مستقيمة عادلة **﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾** أي يقرأون آيات القرآن في ساعات الليل وهم يُصلّون، وقد عبّر القرآن عن الصلاة بالسجود لأنه ركن من أركان الصلاة، وتخصيص السجود بالذكر لأنه يدل على كمال الخضوع لله.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يُصدّقون بوجود الله ووحدانيّته ويصدّقون بأنهم سيُبعثون أحياء بعد مماتهم يوم القيامة، وأن الله سيجازيهم على أعمالهم **﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾** ويأمرون غيرهم بالمعروف وهو ما يُعرف حُسْنُهُ بالعقل والشرع **﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** وينهون عن قبائح الأعمال والمعاصي التي تُبعدهم عن ربّهم.

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين حرصًا منهم على نيل ثواب الله **﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** أي الموصوفون بتلك الصفات هم من جملة عباد الله الصالحين الذين نالوا الرِّضى من الله. وكلمة

الصالحين مَدَحَ الله بها أنبياءه بقوله عن بعضهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ وكلمة ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ معناها التغطية، أي لن يغطي الله ما فعلوا من خير ولن يُحرموا ثوابه البتة ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي أنه سبحانه عليم بمن اتّقاه فأطاعه واجتنب معاصيه. وإذا كان الله عليم بأفعالهم الحسنة فهو سبحانه قد حثّهم على الاستمرار فيها والترغيب في الاستزادة منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أي إن الكافرين لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم التي يعتزّون بها شيئًا من عقوبة الله لهم يوم القيامة ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم من أهل النار التي سيُعذبون بنارها لا يخرجون منها ولا يفارقونها. ولكن من هم هؤلاء الذين كفروا؟ قيل: هم المشركون العرب الذين كانوا يدّعون بما ذكره القرآن: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] ومن الذين كفروا يهود بني قريظة والنضير الذين كانوا يسكنون المدينة المنوّرة وينفقون الأموال الطائلة في محاربة الإسلام.

ثم مثّل الله ما ينفقه الكفّار سواء أكان ما ينفقونه في محاربة الإسلام الذي سيذهب سدى، أو ما ينفقونه في سُبُلِ الخيْر الذي يبطل الله ثوابه بسبب كفرهم بقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي هذا الإنفاق منهم مثله كمثل ريح شديدة البرودة ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ وهذه الريح الشديدة البرودة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، فأفسدت زرعهم وأهلكت ما فيه من ثمر في وقت كانوا أحوج الناس للانتفاع به ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بإنزال العقوبة فيهم بإهلاك زرعهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ
خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ
أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا
آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

شرح المفردات

بِطَانَة: بطانة الرجل خاصّته وموضع سرّه.

مِنْ دُونِكُمْ: من غير ملّتكم.

لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: لا يُقَصّرون في إنزال الشرّ والفساد فيكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ: تمنوا لكم المشقّة والضّرر الشديد.

بَدَتْ: ظهرت.

الغَيْظ: شدة الغضب.

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ: أي أن الله يعلم بما انطوت عليه النفوس من الأسرار.

كَيْدُهُمْ: مكرهم وتبييتهم الشرّ للمؤمنين.

عدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين

وللمحافظة على كيان الدولة الإسلامية من أيّ خللٍ يُصيبها أو ضرر يلحق

بها نهى الله المؤمنين عن عقد الصلات الوثيقة مع أعداء الإسلام يُفشون لهم أسْرارهم ويتلقّون المشورة منهم. وقد كانت قلة من المسلمين يُخالطون حلفاء لهم من اليهود وأهل النفاق ويخصُّونهم بالمودَّة لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ فجاء القرآن بالنهي عن مخالطتهم وعن اتخاذهم أصفياء لِمَا ظهر منهم من عداوة للإسلام، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من غير إخوانهم المؤمنين بطانةً لهم يُطلعونهم على أسرارهم وخفايا أمورهم ويطلبون المشورة منهم ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي هؤلاء البِطانة لا يُريدون لكم الخير، ولا يُقصِّرون في إلْحاق الشرِّ والفساد بكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنّوا وقوعكم في الضرر الشديد والمشقَّة ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قد ظهرت الكراهية لكم من أقوالهم وما يحصل من فلتات ألْسنتهم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وما تنطوي عليه صدورهم من الحقد وإرادة الشرّ لكم هو أشد مِمّا ظهر على أفواههم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي قد أوضح الله لكم العلامات الدَّالَّة على شديد بُغضهم لكم، فلا تجعلوهم أصفياء وأصدقاء لكم إن كنتم من أهل العقل والإدراك للحقائق.

ثم بيَّن القرآن السبب في نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة لهم من غير دينهم: ﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أُولاء: بمعنى الذين، أي ها أنتم أيها المؤمنون الذين اتخذتم من غير ملَّتكم بطانة لكم تحبونهم وترجون لهم الهداية والخير، وهم لا يُحبّونكم ولا يريدون الخير لكم بل يُبطنون العداوة لكم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ والكتاب هنا هو اسم جنس للكتب الإلَهية المُنزلة، أي وأنتم ـ أيها المسلمون ـ تُصَدِّقون بجميع الكتب الإلَهية التي أنزلها الله على رسله، واليهود لا يؤمنون بذلك بل يؤمنون ببعض الكتب دون البعض الآخر ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ وإذا لقوكم ـ أيها

المؤمنون ـ قالوا: صدَّقنا بما جاء به محمد من عند ربه، يقولون ذلك خداعًا لكم حتى تطمئنوا لهم وتخبروهم أسراركم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وإذا اختلى بعضهم ببعض بحيث لا يراهم المؤمنون ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي أظهروا شدَّة العداوة لكم حتى بلغت شدَّتها إلى عضِّ أناملهم من غيظهم لِمَا يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: استمروا بغيظكم وابقوا عليه حتى الموت، فهنا دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به. هذا وإن السبب في ازدياد غيظهم هو ما يرونه من انتشار الإسلام وانتصار أهله وعزتهم ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو سبحانه يعلم ما في صدور خلقه وما قد تنطوي عليه من خير وشر فيجازيهم جميعهم على ما قدّموا من أعمالهم.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إن نالكم خير ـ أيها المؤمنون ـ ساءهم ذلك وأحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وإن تنزل بكم مصيبة يفرحوا ويشمتوا بكم.

ومن دقائق بلاغة القرآن أنه اختار لفظ المس في جانب الحسنة والإصابة في جانب السيئة إشعارًا بأن أُولئك الكافرين والمنافقين يسوؤهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قلّ، وعبَّر عن المصيبة التي تلحق بالمسلمين بالإصابة وهي التي تغمر وتعمّ فهي التي تفرحهم وتشفي غليلهم.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وإن تصبروا ـ أيها المؤمنون ـ على عداوتهم وكيدهم وتتقوا اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين لا ينالكم من كيدهم لكم شيئًا من الضرر قليلًا كان أو كثيرًا ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إن الله محيط علمه بأعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم بما يستحقون من عذاب بسبب كيدهم لكم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ
رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

شرح المفردات

غَدَوْتَ: خرجت أوّل النهار، وقد يستعمل الغُدُوّ في مطلق الخروج.

تُبَوِّئُ: تُهيّئ وتُنزل.

مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ: الأماكن المناسبة للقتال.

وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ: المراد أنهم كانوا قليلي العدد مع قلّة في السّلاح.

مِنْ فَوْرِهِمْ: من ساعتهم.

مُسَوِّمِينَ: معلّمين بعلامة تميّزهم عن غيرهم.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا: ليُهلك طائفةً منهم.

يَكْبِتَهُمْ: يُخزيهم ويُدخل الهمّ إلى قلوبهم.

فَيَنْقَلِبُوا: فينصرفوا ويرجعوا.

غزوة أُحُد

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الحديث عن غزوة أُحُـد، وكان حديثه في ذلك زاخرًا بالتوجيهات الحكيمة والتربية القويمة والتشـريعات السامية بما يكون في ذلك هداية للمسـلمين في كل زمان ومكان، مبيّنًـا الطريق الذي يوصل المسـلمين إلى النصر، وموضحًا طريق الفشل ليجتنبوه، وقد كان النصر أولًا للمسـلمين ثم تلته الهزيمة عندما خالف رُماة السِّـهام وصيَّة الرسول محمد ﷺ بالبقاء في أماكنهم في الجبل خلف جيش المسلمين مهما كان حال سير المعركة نصرًا أو هزيمة.

الرغبة فـي الثأر: لم يهدأ غيظ الكفار العرب بعـد ما أصابهم من هزيمة فادحة في غزوة بدر، لهذا أخذوا يُعِدُّون العُدَّة لجولة أُخرى من القتال يثأرون فيها لمن قُتِلَ منهم، فأرسـلوا إلى قبائل العرب يسـتنفرونهم للقتال معهم، فاسـتجابت لهم جموع من قبائل شتى واسـتطاعوا تجنيد ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة (أبي سفيان) ثم أقبل بهم نحو المدينة المنوَّرة ونزل بجيشه قريبًا من جبل أُحُد.

استشـار النبي ﷺ أصحابه في شـأن هـؤلاء المشـركين الزّاحفين إلى المدينة لقتال المسـلمين فكان رأي بعضهم، ومعظمهم من الشباب، الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، وكان رأي فريق آخر من الصحابة استدراج المشـركين للدخول إلـى أزقة المدينة، فـإن هاجموهم قاتلهـم الرجال في وجههم ورماهم النسـاء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا الرأي، إلا أنه آثر الأخذ برأي الشباب، وهم الأكثر عددًا، حيث يرون ملاقاة المشركين خارج المدينة.

صلّى النبي ﷺ صلاة الجمعـة ووعظ الناس وحثّهم على الصّبر والجلد،

وبعد الانتهاء من الصلاة دعا بِلأْمَتِهِ[1] فلبسها، ثم نادى المسلمين للخروج لملاقاة المشركين، فخرج النبي ﷺ في ألف مقاتل من المسلمين.

ولمّا كان النبي ﷺ وجيشه في منتصف الطريق قاصدًا جبل أُحُد انسحب عبدالله بن أُبَيّ رئيس المنافقين ومعه ثلاثمئة من أتْباعه من جيش المسلمين، ولمّا رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبي العهد بالإسلام تخاذل عبدالله بن أُبَيّ وجماعته تولّاهم الخَوَر والجُبْن وكادتا تنسحبان من جيش المسلمين ولكنّ الله عصمهما عن ذلك.

نزل المسلمون في جانب الوادي من جبل أُحُد جاعلين ظهورهم إلى الجبل، وفي صباح يوم السبت وزّع النبي ﷺ الرُّماة ـ أي الذين يرمون السهام ـ وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال لهم: احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن نُؤتى من ورائنا، والْزموا مكانكم لا تبرحوه، وإن رأيتمونا نهزمهم فلا تُفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالسهام، فإنّ الخيل تتراجع في حال إصابتها.

الْتحم الجيشان، وظهر المسلمون في أعلى صُوَرِ البطولة والشجاعة، وما هي إلّا جولات حتى ولّى المشركون الأدبار منهزمين، ورأى الرُّماة الذين وضعهم النبي على الجبل أن الهزيمة تحلّ بالمشركين فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم عبدالله بن جبير أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملًا بوصيّة النبي ﷺ، إلّا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة للحصول على الغنائم، وبقي عبدالله بن جبير على الجبل مع عشرة من المقاتلين الرُّماة.

(١) لأمته: دِرْعه.

أدرك خالد بن الوليد وكان آنذاك قائدًا على فيلق من المشركين قبل إسلامه أنَّ ظهور المسلمين قد انكشفت بترك معظم رُماة السِّهام أماكنهم، فاغتنمها فرصة واستدار على عجل بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين وأخذوا في مهاجمتهم في مكان ما كانوا يظنون أنهم سيهاجَمون منه بعد أن قضوا على من بقي من الرماة على الجبل فقتلوهم جميعًا مع أميرهم عبدالله بن جبير، فلمّا رأى المسلمون ذلك البلاء الذي حلّ بهم دُهِشوا وأصابهم الهلَع وتركوا ما بأيديهم من الغنائم، واختلّت صفوفهم، إلّا أنَّ فريقًا منهم أخذ يقاتل ببسالة، واستشهد عدد كبير منهم، وأُصيب النبي ﷺ خلال ذلك بجروح بالغة وأُشيع أنه قُتِلَ، فازدادت الفوضى وعظُمت البليّة، إلّا أن أحد المسلمين شاهد محمدًا وأنه حيّ، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين هذا رسول الله، فالتفَّ حوله جماعة من صحابته ودافعوا عنه دفاع الأبطال.

وقد كانت إشاعة مقتل النبي التي تسرَّبت إلى صفوف المشركين وكثرة الضحايا التي أوقعوها بالمسلمين سببًا في تراجع المشركين عن الاستمرار في المعركة وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين، وانتهت غزوة أُحُد باستشهاد سبعين مقاتلًا من المسلمين. هذا مُلَخَّصُ غزوة أُحُد.

رجع المسلمون إلى المدينة المنوَّرة وقد هدَّهم الحُزْنُ، وفَتَّ في عضدهم هذه الهزيمة بعد النصر الذي أصابوه، لذا نزل في هذه المعركة ستون آية تعالج نفوس المؤمنين وما أصاب بعضهم من وَهنٍ ويأس، وتُواسي من فقدوا من أحِبّتهم، وما أصابهم من جراح، مبيّنة الثواب العظيم للشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة.

والقرآن لم يذكر أحداث غزوة أُحُد متتابعة بل تخللتها إشارة إلى غزوة بدر وما جرى فيها من تضحيات وتأييد من الله للمسلمين أوصلتهم إلى نصر

فريد من نوعه في تاريخ الأُمم، وكذلك النهي عن تعاطي الرِّبا لأنه يثير الضغائن في النفوس فلا يجعل القلوب صافية مترابطة لمواجهة العدو، كما دعا القرآن المؤمنين إلى المسارعة إلى مغفرة الله والإنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عمن يسيئون إليهم.

ولنعرض ما ذكره القرآن عن غزوة أُحُد وما جرى فيها من وقائع وأحداث، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ غدوت: أي خرجت غدوةً في أوّل النهار. والمعنى: وأذكر يا محمد وقت خروجك باكرًا من المنزل الذي فيه أهلك إلى غزوة أُحُد ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ[1] لِلْقِتَالِ﴾ قاصدًا وضع المؤمنين في الأماكن المناسبة للقتال، فمنها موضع لرماة السهام، وموضع للفرسان، وموضع لسائر المؤمنين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنيّاتكم وأعمالكم .

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ والهمّ هو الخاطر الذي يُراود النفس بأن تفعله ولكن لا تنفّذه، والطائفتان هما حيّان من الأنصار: بنو سلَمَة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوْس وكانا جناحَيْ عسكر رسول الله. والفشل في اللغة يأتي بمعنى ضَعْف مع جُبْنٍ وهو المراد في الآية، والمعنى: واذكر يا محمد حين همّت طائفتان من جنودك أن تَجْبُنا وتضعُفا عن القتال حين رأوا المنافق عبدالله بن أُبَيّ ينسحب بثلث الجيش من أتباعه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ والله سبحانه يتولّى أمر هاتين الطائفتين من المؤمنين ويعصمهما عن أتباع ما همّت به أنفسهم من الانسحاب، وهذا ما حصل

(١) مقاعد: جمع مقعد، ثم استعمل بمعنى المكان توسعًا وهو المراد هنا، والقرآن عبّر عن الأماكن بالمقاعد للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعد في مكانه.

فكان أن مضوا مع رسول الله للقتال ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويُفوّضوا أُمورهم إليه مع اتخاذ الأسباب التي أمر الله بإتيانها.

غزوة بَدْر

وقبل أن تُتَابع الآيات الكلام عن غزوة أُحُد التي انتهت بالهزيمة بسبب مخالفة رماة السهام أوامر النبي ﷺ بالثبات في أماكنهم على الجبل، تذكر لنا هذه الآيات ما جرى في غزوة بَدْر التي سبقت غزوة أُحُد التي انتهت بالنصر حينما توكّل المسلمون على الله واستماتوا في القتال وامتثلوا أوامر النبي ﷺ، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ[1]﴾ وبَدْر: هو بئر بين مكة والمدينة المنوّرة كان لرجل اسمه بدر فسمي هذا الموضع باسمه، وهناك حصلت غزوة بدر حيث نصركم الله ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي وأنتم قليلون. وذِلّتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، فقد كانوا ثلاثمئة وبضعة عشر ولم يكن معهم إلا فرس واحد، وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس، يقول القرطبي: واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلّا أعِزّة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فاتقوا الله أيها المؤمنون بالثبات مع رسوله ﷺ، وامتثال أوامر الله لعلّه يُنْعِمُ عليكم نعمة أُخرى تشكرونه عليها.

وسبب غزوة بدر هو أن النبي ﷺ عَلِمَ أن قافلة تجاريّة كبيرة لقريش قادمة من الشام في طريقها إلى مكة بقيادة أبي سفيان ويحرسها ثلاثون أو

(١) أذلة: الأذلة، جمع قلة. والذلان جمع الكثرة.

أربعون رجلًا، فعزم النبي ﷺ أن يعترض طريق هذه القافلة فيُصادرها للإنفاق على جنوده، فدعا النبيّ أصحابه للخروج معه للاستيلاء عليها.

وصل إلى أسماع أبي سـفيان نبأ خروج محمد وأصحابه للاستيلاء على القافلة، فأرسـل أحد رجاله إلى قريش يُعْلِمُهم الخبـر، واتَّبع هو طريقًا غير طريـق القافلة فأفلت ممن يترصدونه، وسـارع رجالات قريـش إلى نجدته، فخرجوا في تسعمئة وخمسين مقاتلًا معهم مئة فرس.

هنا تغيّر وجه الأمر، فلـم يكن قاصرًا على ملاقاة قافلـة قليلة العدد بل على جيش كبير لم يأخذ المسلمون الاسـتعداد لملاقاته، فاستشار النبي ﷺ من معه من أصحابه، فتكلم المهاجرون كلامًا حسـنًا، وكان منهم المقداد بن عمرو فقد قال: يا رسـول الله، امضِ لما أَمَرَكَ الله فنحن معك، ثم تكلم سعد ابن معاذ عن الأنصار فقال: «لقد آمنّا بك وصدَّقْناكَ وشـهدنا أن ما جئتَ به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ لما أردت، فنحـن معك، فوالذي بعثك بالحق لو اسـتعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»، فظهر السـرور على وجه النبي لقول سـعد ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وَعَدني إحدى الطائفتين»[1] حيث يقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] وتابع النبي قوله: «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم إنَّ النبي ﷺ أخذ يتحسّـس أخبار قريش وعددهـم عن طريق العيون التي بثّهـا حتى علم أنهم ما بين التسـعمئة والألف وأن فيهـم عامة زعماء المشركين، ونظر إلى أصحابه مقابلهم وعددهم ثلاثمئة ونيّف.

استقبل النبي ﷺ القِبلة وقال: «اللّهم أنجز لي ما وَعَدْتني، اللّهم إن تَهلك

(١) إحدى الطائفتين، إما الاستيلاء على القافلة أو الانتصار على جيش قريش.

هذه العصابة[1] من أهل الإسـلام فلـن تُعبد بعدُ في الأرض أبـدًا» فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر بيده وقال: «حسبك يا رسول الله، ألْححت على ربّك»، وكان مما نزل من القرآن بعد هذه الاستغاثة:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ[2] ﴾ [الأنفال: ٩].

ثم ابتدأت المعركة وحمي وطيسـها وكانت الهزيمـة لقريش وبلغ عدد القتلى منهم سـبعين رجلًا، وأُسِـرَ منهم سـبعون أيضًا، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلًا، وهذا ملخص عن غزوة بدر.

فالله سـبحانه أمدَّ المؤمنين يوم غـزوة بدر بألف مـن الملائكة كما هو مذكور في سورة الأنفال، ثم إن المسـلمين بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد جيش قريش بعدد كبير من المحاربين فخافوا وشـقَّ ذلك عليهم لقلة عددهم، فأنزل الله قوله: ﴿ إِذْ تَقُـولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَـةِ مُنْزَلِينَ ﴾ أي واذكر يا محمد حين قلت للمؤمنين يوم غزوة بدر: ألا يكفيكم للتغلب علـى أعدائكم أن يُمدكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين من السماء لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ نعـم يكفيكم ذلك الإمداد إن صبرتم واتقيتم الله بطاعته وترك عصيانه ﴿ وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ أي وإن عاجلكم المشـركون في الحال بجيشـهم لمحاربتكم ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مميِّزين أنفسهم بعلاماتٍ يُعرفون بها.

(١) العصابة: الجماعة من الناس.

(٢) مردفين: متتابعين.

والله سبحانه أمدَّ المؤمنين يوم غزوة بدر بألف من الملائكة كما هو مذكور في سورة الأنفال، ثم وعد الله المؤمنين بأنّ الكفار إن جاءهم مدد من قومهم ونجدة، فإن الله سيمدّهم بثلاثة آلاف من الملائكة أو خمسة إذا صبروا على القتال واتّقوا ربهم، ولكن ذلك المَدَد من المحاربين لم يأتِ للكفار من مكة بسبب انصراف قومهم عن نجدتهم بعد أن بلغهم هزيمتهم، لذا لم يكن من داعٍ لإمداد المسلمين بالزيادة عن ألف من الملائكة، ولا دلالة في الآية على أنهم أُمِدُّوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، وقد أجمع المفسرون أن الله أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة يوم غزوة بدر كما جاء في سورة الأنفال وأنهم قاتلوا الكفار مع المسلمين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ وما جعل الله الإمداد بالملائكة إلّا بشارة لكم من الله بالنصر على أعدائكم **﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾** أي ولتسكن قلوبكم بهذه البشرى فلا تخافوا من كثرة عدوّكم **﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** أي وإن النصر لا يكون إلّا من عند الله وحده وليس بكثرة عدد المحاربين ووفرة السلاح، وهو سبحانه القويّ الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها حسب ما تقتضيه حكمته في سائر أفعاله.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولقد نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ يوم بدر لِيُهلك طائفة من الكفار **﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾** أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فيرجعوا إلى ديارهم منهزمين وقد فقدوا الآمال فيما سعوا إليه.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
(١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾

شرح المفردات

أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً: الأضعاف جمع ضعف، وضعفاه مِثْلاه، وأضعافه أمثاله.

أُعِدَّتْ: هُيِّئت.

التسليم لإرادة الله

ولقد كان لغزوة أُحُد وقعٌ كبير على رسول الله ﷺ بما أُصيب به من جراح، فقد كُسِرَت رُباعِيَّته[1]، وشُجّ رأسه، وأخذ الدم يسيل على وَجْهِهِ الكريم، فجعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: كيف يُفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم بالدّم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزل الوحي الإلٰهي عليه بقوله تعالى:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر الناس شيء وإنما أمرهم إلى الله يقضي فيهم بما يشاء **﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**

(١) رباعِيَّته: السّن التي بين الثَّنِيَّة والناب؛ والثّنيّة هي إحدى الأسنان الأربع التي في مُقدَّم الفم.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أو يتوب عليهم في حال إسلامهم واتِّباعهم ما جئت به من الهدى، أو يعذبهم في الآخرة إن هُم أصرُّوا على كفرهم، فهم مستحقون العذاب لظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه ما فيهما خَلْقًا وملكًا وتصرّفًا، ومن كان كذلك كان جديرًا بأن يكون الأمر كله إليه ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يغفر الله لمن يستحق أن يُغفر له ممن تاب وآمن وعمل صالحًا، ويُعذّب من يشاء لمن يقترف المعاصي والمنكرات ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هاتان الصفتان لله من صيغ المبالغة، فالله سبحانه يُبشّر عباده بأنه متصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة وأنّ رحمته سبقت غضبه.

تحريم الرِّبا

وفي هذا الجو الذي تفوح منه رائحة القتال والموت في غزوة بدر وغزوة أُحد، تأتي توجيهات القرآن في النهي عن الرِّبا، ولكن ما علاقة الربا بهذا الجَوّ الذي يسوده القتال؟ الجواب على ذلك: هو أن الإعداد الرُّوحي والخُلقي والنفسي للمعركة لا يقلّ أهمية عن الإعداد الحربي، فالرِّبا يُثير الضغائن في النفوس، ولا يجعل القلوب صافيةً مترابطةً متَّحِدَةً كما ينبغي لها أن تكون وهي مقبلة على خوض المعركة، لذا شدَّدَ القرآن النهي عن الرِّبا في كثير من الآيات، وبالأخص في هذه السورة حيث يقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ خاطب الله المسلمين بصفة الإيمان لبيان أنّ أكل الربا ليس من طبيعة المؤمنين، وإنما هو من صفات أهل الكفر والعصيان. والرِّبا: معناه الزيادة والمُرادُ به اصطلاحًا، الزيادة على أصل الدَّيْن، وكلمة الرِّبا مرادفة لكلمة الفائدة في عُرْفِ علماء الاقتصاد. وقد كان العرب قبل الإسلام يتعاطون الرِّبا، فكان المدين إذا حلَّ

أجل سداد دينه مقابل فائدة ما، ولم يكن باستطاعته أن يدفع الدَّيْن المستحقّ عليه، قال لصاحب المال: أخِّر عني سداد دينك وأَزيدُك على مالِكَ، فيفعلان ذلك مرارًا حتى تتضاعف الفائدة، ولربما ضاعف الدائن الفائدة مقابل تأخُّر المدين في الدفع.

والآية هنا التي نهت عن أكل الرِّبا في حال المضاعفة لا تدلُّ على إباحته عند عدم المضاعفة ـ كما يدّعي البعض ـ وإنما هو لبيان الواقع والغالب عند العرب يومئذٍ من غير القصد إلى جَعْلِ ما دون المضاعفة جائزًا مباحًا. ولعلَّ بعض الناس الجهلة يريدون أن يُحلّلوا الرِّبا فيقولون إن المحرَّمَ هو الأضعاف، أما الأربعة أو الخمسة أو السبعة في المئة فلا يكون داخلًا في نطاق التحريم، وهم نسوا ما ذكره القرآن في الرد على من يدّعي ذلك في شأن الرِّبا حيث قال الله تعالى:

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]

والمعنى: ولكم أيها الدائنون رأس مالكم من دون فائدة ما في حال توبتكم عن تعاطي الرِّبا. ثم ختم الله الآية التي نهت عن الرِّبا بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين ما نهاكم الله عنه وقاية، ومن ذلك الامتناع عن أكل الرِّبا لتنالوا الفوز في الدنيا وسعادة الآخرة ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وقد كان أبو حنيفة يقول عن هذه الآية: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المُعَدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب ما حرّمه عليهم، ومن تلك المحرمات التعاطي بالرِّبا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله في كل ما أمركم الله به وما نهاكم عنه لتنالوا رحمة الله، وهنا إشارة بأنه لا طاعة لله ورسوله في مجتمع يقوم على النظام الربوي، ولا طاعة لله ورسوله في قلب من يأكل الرِّبا.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ
فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ
ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾

شرح المفردات

وَسَارِعُوا: المُسارعة إلى الشيء: المبادرة إليه من دون تراخٍ ولا تردُّد.

أُعِدَّتْ: هُيِّئت.

السَّرَّاء: الرَّخاء واليُسر.

وَالضَّرَّاء: الشِّدَّة والعُسر.

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ: كظم الغيظ هو حبسه وعدم إظهاره، والغيظ أشد الغضب.

فَاحِشَةً: هي كل فعلة شديدة القبح، كما تطلق الفاحشة على الزنى.

يُصِرُّوا: يقيموا على الشيء لا يتركوه.

صفات المتقين وثوابهم عند الله

وبعد أن شدَّد القرآن على النهي عن تعاطي الرِّبا وبيَّن إثمه العظيم بيَّن بعد ذلك بعض الصفات والأعمال التي تُقرِّب المسلم إلى خالقه، قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾
والمعنى: بادِروا وسابِقوا إلى العمل الذي يوصلكم إلى مغفرة من الله لذنوبكم ويدخلكم جنة واسعة فيها من ألوان النعيم ما لا يخطر على قلب بشر. وقد وصف الله تلك الجنة بأن عرضها كعرض السماوات والأرض، وقد ذُكِرَ العرض للمبالغة في سعتها، فإذا كان عرض الجنة هكذا، فكم يكون طولها؟ وهذه الجنة **﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾** أي هُيِّئَت للذين يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب المعاصي التي حرَّمها عليهم.

ثم وصف الله بعض صفات المتقين التي تؤهلهم لمغفرته تعالى ودخول جنته **﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾** أي يُنفقون في اليُسر والعُسر والرَّخاء والشدَّة، وكلمة **﴿يُنْفِقُونَ﴾** جاءت بصيغة فعل المضارع الذي يفيد التجدّد مرة بعد مرة، فهم ينفقون ويتجدد إنفاقهم باستمرار في الصدقات وطرق الخير.

فالإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء أدلُّ على التقوى وأنفع للبشر، فالمال عزيز على النفس وبَذْلُهُ في الصدقات وطرق الخير والمنافع العامة يشقّ على النفس، ففي السَّرَّاء يكون صاحب المال مشغولًا به للإنفاق على ملذّاته وشهواته ما يدفعه إلى البخل به في مصالح العباد، وأما في الضَّرَّاء فلأن الإنسان يرى في هذا الحال أنه أحق بالمال من سواه، فالإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء دليل على تغلّب النفس على شهواتها ورغباتها ابتغاء رضوان الله.

ومن صفات المتقين: **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾** فالغيظ: هو أشدّ الغضب، وكظم الغيظ هو الإمساك على ما في النفس من الغضب حتى لا يظهر له أثر، والإنسان في استرساله في الغضب يخرج عن وعيه وعن إدراكه لما يصحّ فعله، فيهدم في حالات الغضب ما بناه في سنين من صلات الودّ

مع الآخرين، وقد يُؤدي الغضب وما يصدر عنه إلى ما لا تحمد عُقْباهُ من المشاجرة والاقتتال، كما يؤدي إلى أضرار صحيَّة بالغة الخطورة على صحة الإنسان، لذا جعل الرسول محمد ﷺ امتلاك النفس عند الغضب من أمارات البطولة فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ[1]، إنّما الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[2].

ومن صفات المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ والغضب في أكثر الأحيان ينشأ عند الإنسان بسبب الذين يُسيئون إليه ويعتدون على حُرماته، لذا كان العفو من الصفات الحميدة التي يتحلّى بها المؤمن لأنها لا تصدر إلّا عن نفسٍ كبيرةٍ راجحة العقل صبرت على اعتداء الغير وأذاه.

وقد دعا القرآن إلى العفو وبيّن أنه من أسباب رضا الله ومغفرته فقال تعالى ﴿... وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] كما أثنى الله على الذين يعفون عمن أثاروا غضبهم فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

ومن صفات المتقين ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقد أسبغ الله على المحسن محبّته وهي مرتبة في القربى من الله لا يُوازيها أيّ مرتبة في الفضل. والإحسان يطلق على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، يُقال: أحسن إلى فلانٍ أي أعطاه الحسنة، والثاني: إذا عمل عملًا حسنًا على الوجه اللائق، ومنه قول النبي ﷺ عندما سُئِلَ عن الإحسان فأجاب: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ»[3].

---

(١) الصرعة: من يغلب الناس عند المصارعة ولا يُغلب.
(٢) رواه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

ومن الطريف ما رواه القرطبي عن ميمون بن مهران: أنّ جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارَّة وعنده أضياف، فعثَرت فصبّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها فقالت الجارية: يا مولاي خذ بقول الله تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال لها: قد فعلتُ، فقالت: اعمل بما بعده ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال: قد عفوتُ عنكِ، فقالت الجارية ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ فأنتِ حُرَّة لوجه الله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ والفاحشة هي الفعل القبيح الذي لا يرضاه الله، وقيل: الفاحشة في هذه الآية يُراد بها الزِّنى ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باقتراف ذنبٍ من الذنوب وهو ما دون الزنى مثل القُبلة والمعانقة ممن لا يباح له معها ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكَّروا أوامر الله ونواهيه وما أعدّه للمذنبين من عقاب، أو تذكَّروا عظمة الله وجلاله وحقّه أن يُطاع فلا يُعصى ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي طلبوا المغفرة من الله لأجل ذنوبهم.

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يغفر جنس الذنوب إلّا الله، وفي ذلك وَصْفٌ للهِ بغاية سعة رحمته، وأن التائب عنده كمن لا ذنب له، وأنَّ عَدْله يوجب المغفرة للتائب، وفي ذلك تطييبٌ لنفوس العباد، وحثٌّ على التوبة، ورَدْعٌ عن اليأس والقنوط لمن أسرف في المعاصي، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ أي ولم يصرّوا على ارتكاب الذنوب بل امتنعوا عنها وبادروا إلى التوبة منها ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله قد نهى عن اقتراف الذنوب وأوْعد بالعقوبة عليها.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أُولئك الموصوفون بصفات التقوى لهم من الله عفو على ما سَلَفَ من ذنوبهم ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ﴾ ولهم جنّات تجري من خلال أشـــجارها وقصورها الأنهار ينعّمون بها بما تشتهي به أنفسهم من ألوان النعيم ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ ونِعْمَ ثواب العاملين بطاعة الله وهو دخول جنات النعيم.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ
وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ
تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

شرح المفردات

خَلَتْ: مَضَت.

سُنَنٌ: جمع سُنَّة، وسُنَّةُ الله: ما جرى به نظامه في خلقه.

عَاقِبَةُ: مصير.

بَيَانٌ: توضيح.

مَوْعِظَةٌ: هي النصح بطاعة الله والإرشاد إليها.

وَلا تَهِنُوا: الوهن: الضعف، أي ولا تضعفوا.

قَرْحٌ: جُرْح.

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ: نجعلها متبادلة، فمرَّة الغلبة لهؤلاء ومرَّة لسواهم.

وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا: يُطَهِّرُهُم الله من الذنوب بما يصيبهم من الابتلاء.

وَيَمْحَقَ: ويهلك.

تَمَنَّوْنَ: ترغبون.

مواساة المؤمنين بما أصابهم من المحن

ثم يعود بنـــا القرآن ثانية إلـــى الكلام عن غـــزوة أُحُد ومـــا تركت من انطباعات أليمة في نفـــوس المؤمنين، مُبيِّنًا حقيقة النصر، وأســـباب الهزيمة التي لو تمعّن بها المؤمنون لانكشفت لهم أسرار الأحداث الأليمة التي ألمّت بهم في هذه المعركة، وما أصابهم فيها من قتل وجراح، يقول الله تعالى:

﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُـــنَنٌ**﴾ والسُّنَنُ: جمع سُـــنَّة وهي الخطّة المتبعة والطريقة المستقيمة، والمراد بالسنن هنا ما سَنَّه الله في الأُمم من وقائع، وما جرى به نظامه في خلقه. فالله ســـبحانه يخاطب المؤمنين بأنه قد مضت قبل زمانهم هذا وقائع أجراها الله حسب سُـــنّته في إهلاك الأُمم الطاغية ﴿**فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ فســـيروا في الأرض ـ أيها المؤمنون ـ وانظروا في أحوال الأُمم السابقة وما كان من مصيرهم من هلاك بسبب تكذيبهم الأنبياء، وإنّ آثار الدمار الذي حلّ بهم لتنبئ عنهم كقوم عاد وثمود وقوم لوط.

﴿**هَـــذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ**﴾ أي هـــذا القرآن يوضّح للناس سُـــنَنَ الله في خلقه ﴿**وَهُـــدًى وَمَـــوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ كما أنه إرشـــاد إلى الحـــقّ، وعظة يتّعظ بها المتقون الذي أطاعوا الله وتركوا معصيته.

ثم يُواسي الله المؤمنين لما أصابهم في غزوة أُحد من قتل وجراح: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله ولا تحزنوا على من قُتِلَ منكم ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وحالُكم أيها المؤمنون أنكم أعلى من أعدائكم شأنًا لأنكم على الحق، ولأن قتالكم في سبيل الله يضمن لكم الجنة وأنّ الكافرين هم على الباطل، وأنتم الغالبون إن كنتم مصدّقين في ما وعدكم به الله من النصر، فاتركوا الوهن والحُزن جانبًا.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ القرح بفتح القاف. الجراح، أراد القرآن أن ما أصاب المؤمنين من قتل وجراح يوم غزوة أُحد قد أصاب أعداءهم مثله يوم غزوة بدر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي يصرّفها الله بين الناس من فرح وغمٍّ، وصحة وسقم، وغنًى وفقر، ونصر وهزيمة. فالمداولة: نقل الشيء من طرف إلى آخر، والمراد هنا أن النصر يكون تارةً للمؤمنين، وتارةً يكون للكافرين إذا عصى المؤمنون ربهم، وخالفوا وصية نبيهم، ولم يأخذوا بالأسباب التي تُؤدي إلى النصر ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليعلم الله الذين آمنوا منكم أيها القوم من الذين نافقوا منكم، ومعنى علْم الله تعالى هنا تحقُّق ما قدّره في الأزَل، فالله سبحانه عالم بكل شيء قبل ظهوره للعباد وبعد ظهوره ليميّز الثابتين على الإيمان من غيرهم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرّم الله أناسًا منكم أيها المؤمنون بالشهادة إذا وقعت المعركة، ليكونوا مِثالًا يُحتذى لغيرهم في التضحية بالنفس في سبيل الله، وسُمّوا شهداء لأنه مشهود لهم بنعيم الجنة، وهم أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ والله سبحانه لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التمحيص: تخليص الشيء من كل عيب، أي لِيُطَهِّر الله المؤمنين من الذنوب وينقّيهم من السيئات بما ينزل بهم من أنواع الابتلاء ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلك الكافرين.

ثم يعاتب الله المؤمنين المنهزمين في غزوة أُحُد: ﴿أَمْ[١] حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل ظننتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا كرامة ربكم ﴿وَلَمَّا[٢] يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ولم يتبيّن المجاهد منكم في سبيل الله الذي صبر على أعباء القتال وشدائده فيعلم الله ذلك منكم. والله سبحانه عالم بكل شيء قبل ظهوره للعباد وبعد ظهوره لا تخفى عليه خافية فطريق الجنة ليس سهلًا يسلكه كل إنسان، وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ تمنّون: أصلها تتمنون حُذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى: ولقد كنتم ـ أيها المؤمنون ـ تتمنون قتال أعدائكم والموت في سبيل الله لتنالوا الشهادة والأجر من الله مثل ما ناله الذين قاتلوا في معركة بدر من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا أهواله ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فقد رأيتم الموت حين قُتِلَ إخوانكم، وأنتم تنظرون سقوطهم صرعى بين أيديكم.

(١) أم: هي المنقطعة بمعنى (بل) التي تفيد الانتقال إلى كلام فيه معنى يختلف عن الأول.
(٢) لمّا: وإن أفادت نفي ما بعدها من الجهاد والصبر من المؤمنين ولكنها تفيد توقّع حصول ذلك منهم فيما بعد.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ
قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ
شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٥)
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦) وَمَا
كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾

شرح المفردات

خَلَتْ: مضت.

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ: ارْتددتم إلى الكفر بعد إيمانكم.

بِإِذْنِ اللهِ: بأمره وقضائه.

كِتَابًا مُؤَجَّلًا: أي كتب الله الموت كتابًا مؤقتًا بوقتٍ محدّدٍ.

وَكَأَيِّنْ: بمعنى (كم) الخبرية الدّالّة على الكثرة.

رِبِّيُّونَ: جموع كثيرة، أو فقهاء علماء.

فَمَا وَهَنُوا: فما ضعفوا وما عجزوا.

وَمَا اسْتَكَانُوا: وما ذلّوا وما خضعوا لأعدائهم.

إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا: خطايانا.

ثَوَابَ الدُّنْيَا: النصر على عدوّهم والغنيمة منه.

إشاعة مقتل محمد ﷺ وأثرها

ولقد كان من أشدّ المصائب وقعًا على قلوب المسلمين ما أُشيع عن قتل النبي محمد ﷺ في غزوة أُحُد، هذه الإشاعة أحدثت بلبلة في صفوف المسلمين حيث ألقى بعضهم السلاح، وقال البعض الآخر: لَيْتَ لَنا رسولًا إلى عبدالله بن أُبَيّ وهو من كبار المنافقين فيأخذ لنا الأمان من أبي سفيان.

وفي تقاعس بعض المسلمين عن الجهاد عندما سمعوا أنَّ محمدًا قد قُتل، نزل القرآن مُرشدًا للمسلمين إلى أن دين الإسلام ليس مُقتصرًا على حياة النبي محمد ﷺ، وإنَّما هو دِينٌ يجب الارتباط به والدفاع عنه سواء أبقِيَ محمدٌ حيًا بين المؤمنين أو توفّاه اللهُ، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي وما محمد إلّا رسول من عند الله قد مضت من قبله رُسُلٌ من عند الله وماتوا عند انتهاء آجالهم **﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾** أفإن مات محمد كما مات الأنبياء قبله أو قُتل كما قتل بعضهم مثل يحيى وزكريا **﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾** والانقلاب: الرجوع، والأعقاب: جمع عَقِب وهو عظم مؤخر القدم، والانقلاب على الأعقاب: تعبير مجازي يُراد به الارتداد عن دينهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من الكفر **﴿وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾** ومن يرجع عن دينه فلن يضرّ دينَ الله في شيء، ولا ينقص ذلك من ملك الله وسلطانه، لأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرّه معصية أَحَدٍ، وإنما رجوعه عن دينه يعود عليه بسخط الله **﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾** وسَيُثيب الله الذين صبروا على دينهم وعلى لقاء عدوّهم وشكروا الله في السَّرّاء والضَّرّاء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي ما كان الموت ليحصل لنفس لأيّ سبب من الأسباب إلا بمشيئة الله وأمره، لأن ملَك الموت الموكل بقبض الأرواح لا يفعل ذلك إلّا بإذن الله ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أي كتب الله لكل نفس عمرها كتابًا مؤقتًا إلى أجل ووقت معلوم لا يتقدّم ولا يتأخّر ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن يرغب منكم ـ أيها المؤمنون ـ في الحصول على شهوات الدنيا وملذّاتها، فإن الله يُعطيه منها ما قسم له فيها من رزق في أيام حياته، وهنا تعريض بالذين خالفوا وصية النبي ﷺ وتركوا أماكنهم في الجبل التي أمرهم نبيهم بالثبات فيها للحصول على الغنائم ولكن لم ينالوها بل سقط الكثير منهم صرعى وكان ذلك سببًا لهزيمة المسلمين.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن أراد بعمله وجهاده وثواب الآخرة وما أعدّ الله فيها لعباده الصالحين من كرامة وأجر جزيل يعطه الله له في الآخرة ما تقرّ به عَيْنُهُ وتشتهيه نفسه.

ومن أراد ثواب الدنيا والآخرة معًا بطاعة الله وتقواه والعمل الصالح يعطه ثوابهما بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم في الآخرة ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وسيجزي الله الشاكرين في الآخرة الجزاء الأوفى، وهم الذين ثبتوا على الإسلام وصبروا على المكاره، وبذلوا أقصى الجهد في طاعة الله ولم يقصدوا بأعمالهم إلّا الله والدار الآخرة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي وكم من نبيّ قاتل معه جموع كثيرة من أتباعه الذين آمنوا برسالته واهتدوا بهديه ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فما أصاب الذين اتبعوه جُبْنٌ ولا ضعف أثناء قتالهم في سبيل الله على الرغم ممّا كانوا يعانون من قتل وجراحات وآلام ﴿وَمَا

ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما أصابهم ضعف وما خضعوا لعدوّهم وما ذلّوا له ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ الذين يتحملون الشدائد والمكاره في سبيل الله فينصرهم على عدوّهم ويرضى عنهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي وما كان لهؤلاء المجاهدين في سبيل الله من قول في مواطن القتال إلّا التضرع إلى ربهم بأن يغفر ذنوبهم بما حصل منهم من تقصير في حق الله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ وأن يغفر لهم تجاوزهم الحدّ في كبائر الذنوب ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وأن يثبت أقدامهم في مواضع القتال ومواطن الحرب بالتقوية والتأييد وأن يحقق لهم الغلبة على الكافرين حيث دَعَوْا ربهم: ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ فأعطاهم الله ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ كما أنه سبحانه سيعطيهم ثوابًا حسنًا في الآخرة بدخول الجنة، ووصف الله ثواب الآخرة بصفة الحُسْنِ للتنبيه إلى فضله ومزيّته ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين يحسنون أعمالهم وعبادتهم، وحسن ثباتهم في ساحات القتال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ
بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ
إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

شرح المفردات

يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ: يردّوكم إلى ما كنتم عليه من الكفر قبل الإسلام.

مَوْلَاكُمْ: ناصركم.

سُلْطَانًا: حجة وبرهانًا.

مَأْوَاهُمُ: المكان الذي يرجعون إليه.

مَثْوَى: مكان الإقامة الدائمة.

تَحُسُّونَهُمْ: تقتلونهم قتلًا ذريعًا.

بِإِذْنِهِ: بأمره وعلمه.

فَشِلْتُمْ: جَبُنْتم وأصابكم الخَوَر فهُزِمْتُم.

تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ: اختلفتم.

مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ: من الظفر وقهر الكفار.

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ: أي كفَّ الله معونته عنكم فغلبكم الكفار.

تحذير المسلمين من طاعة الكافرين

ويتابع القرآن الكلام عن غزوة أُحُد وما جرى فيها من هزيمة المسلمين وما أُشيع فيها من مقتل النبيّ ﷺ الذي أحدث بلبلة في صفوف المسلمين حيث اغتنمها الكفار فرصة لدعوة المسلمين إلى الارتداد عن دينهم، وأمام هذه البلبلة وهول الفاجعة وضياع المسلمين نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ خاطب الله أتباع محمد بصفتهم الإيمانية لتذكيرهم بما جرى منهم من عصيان وإحباط يُنافي الإيمان الصحيح، وحذّرهم من طاعة الكفار فيما يأمرونهم به من الضلال والخروج عن طاعة رسول الله، إنهم إذا فعلوا ذلك وأطاعوهم، يُرجعوهم إلى الكفر بعد الإيمان **﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾** فتصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيصيبكم الذل والهوان وتصبحوا تحت رحمة أعدائكم، وأما في الآخرة فتحرموا من ثواب الله وتنالوا السخط منه.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ بل الله ناصركم ـ أيها المؤمنون ـ فأطيعوه **﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾** فهو خير من نصر فلا تستنصروا بغيره.

ولكن من هم هؤلاء الكفار الذين حذَّر الله المؤمنين منهم؟ قيل: هم اليهود الذين كانوا يلقون الشبه بين المسلمين بعد المعركة ويقولون: لو كان محمد نبيًّا حقًّا لما غُلب، ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وقيل: هم المنافقون حيث قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم: ارجعوا إلى دين آبائكم. ولفظ الكفر في الآية يتناول جميع الكفار ولا حاجة لتخصيصهم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سيُلقي الله في قلوب المشركين الخوف والفزع، وقد روي أنه لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون متوجّهين إلى مكة بعد أن ألحقوا الهزيمة بالمسلمين في غزوة أُحُد، ولمّا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا: بِئس ما صنعنا شيئًا! قتلنا الكثير من المسلمين ثم تركنا من بقي منهم ونحن قاهرون لهم، ارجعوا حتى نستأصلهم جميعًا، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فامتنعوا عن ملاحقة المسلمين ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ لأنهم أشركوا بعبادة الله آلهة هي الأصنام التي لم ينزِّلْ الله بها حجة أو برهانًا على أُلوهيتها. فهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، فالإشراك بالله سبب لإلقاء الرعب في قلوبهم وخذلانهم ونجاة المؤمنين من كيدهم، لأن الله يُدافع عن المؤمنين ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وليس للمشركين مأوًى في الآخرة إلّا نار جهنم وساء هذا المكان الذي هو جزاء لظلمهم، فهم قد ظلموا أنفسهم فأضلّوها وصرفوها عن الحقّ وظلموا المؤمنين وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ولقد حقّق الله وعده لكم ـ أيها المؤمنون ـ بالنصر على المشركين ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ إذ تقتلونهم قتلًا ذريعًا بإذن الله وقضائه حيث قتلتم صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ الفشل: هو الجُبن وضعف الرأي، أي حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم وشهواتكم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حين اختلف رُماة النبال منكم الذين وضعهم رسول الله على الجبل لحماية ظهور المسلمين، وأمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم مهما كان سير المعركة نصرًا أم هزيمة. فرأت فئة من الرّماة ألّا يبرحوا أماكنهم طاعةً منهم لرسول الله بعد أن لاحت بوادر النصر للمسلمين وهم كانوا

مع قائدهم عبدالله بن جبير، وعصت فئة من الرّماة رسول الله وتركوا أماكنهم في الجبل لجمع الغنائم مع جيش المسلمين ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ ولكن أكثركم عصوا وصية رسول الله وتركوا مراكزهم في الجبل من بعد ما أراكم الله في أول المعركة من نصر مؤزّر تحبونه وترجونه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين تركوا مراكزهم في الجبل التي أوصاهم رسول الله بالثبات فيها للحصول على الغنائم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ومنكم من يريد ثواب الآخرة وهم عبدالله ابن جبير وأصحابه الذين ثبتوا في أماكنهم في الجبل حتى استشهدوا ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم منع الله نصره عنكم بسبب فشلكم وتنازعكم ومعصيتكم لنبيّكم، وردَّكم الله عن أعدائكم فلم تنالوا منهم ما خرجتم لأجله من النصر عليهم، بل أُصبتم بالهزيمة وكثرة من استشهد منكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وكان في ذلك امتحان لكم واختبار ليتميّز قويّ الإيمان من ضعيفه، والمخلص من المنافق ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي ولقد عفا الله عمّا وقع منكم ـ أيها المؤمنون ـ من ضعف أمام شهواتكم وعصيانكم لرسول الله ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله سبحانه صاحب الفضل على المؤمنين بالعفو عنهم والتجاوز عن سيئاتهم.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ
يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا
تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ
طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ
ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ
لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ
كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ
مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾

شرح المفردات

تُصْعِدُونَ: تهربون منهزمين في الأرض مبتعدين.

وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ: لا يلتفت بعضكم لبعض من الخوف.

فِي أُخْرَاكُمْ: في جماعتكم المتأخرة.

فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ: فجازاكم حزنًا متّصلًا بحزن.

أَمَنَةً: أمنًا.

يَغْشَى: يُغطي.

أَهَمَّتْهُمْ: حملتهم على الهمّ.

لَبَرَزَ: لخرج.

مَضَاجِعِهِمْ: مصارعهم.

وَلِيَبْتَلِيَ: وليختبر ويمتحن.

وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ: أي ليطهّر قلوبكم من الرّيب.

تَوَلَّوْا: انهزموا وفرّوا.

الْجَمْعَانِ: جمع الكافرين وجمع المؤمنين.

اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ: حملهم على الزلّة والمعصية بوسوسته.

فرار بعض المسلمين من المعركة وعفو الله عنهم

ويتابع القرآن فيصف فرار المسلمين من أعدائهم بعد أن انقلب النصر إلى هزيمة في تلك الصورة المصحوبة بالهلع والخوف، يقول الله تعالى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ[1] وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ إذ تذهبون بعيدًا في الوادي وبعضكم يصعد إلى الجبل فارّين منهزمين لا يلتفت بعضكم إلى بعض من شدّة الهلع ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ والرسول محمد يدعوكم من خلفكم وأنتم منهزمون قائلًا لكم: إليّ عبادَ الله إليّ عبادَ الله، يدعوكم إلى نفسه لتجتمعوا عنده وتكونوا كتلةً واحدةً لمحاربة العدو ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي فجازاكم الله على صنيعكم غمًّا متّصلًا بغمٍّ، والغمّ هو الحُزن والكرب وليس المراد بقوله تعالى: غمًّا بغمّ، غمّين اثنين، وإنما المراد مواصلة الغموم وتفرّقها، فما سمعوه من إشاعة مقتل نبيّهم محمد أدخل الغمّ الأكبر إلى قلوبهم، وعصيانهم للرسول ﷺ كان غمًّا له، وما

(١) تُصعدون: الإصعاد هو الذهاب في الأرض والإبعاد فيها، وهو كناية عن فرارهم من العدو، وهناك قراءة بفتح التاء في تصعدون بمعنى الصعود، أي الصعود في الجبل.

أصابهم في صفوفهم من قتل وجراح كان غمًّا لهم ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي ما أصابكم من غمٍّ هو بسبب عصيانكم لرسول الله لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة ولا ما أصابكم من قتل وجراح ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إنّ الله سبحانه عالم بأعمالكم وما قصدتم إليه، فيُجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ثم يبيّن القرآن ما حدث للمؤمنين بعد غزوة أُحُد:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ أَمَنَة: مصدر بمعنى الأمن، والنعاس فتور في الحواس يسبق النوم. والمعنى: ثم أنزل الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ بعد الحزن الذي هدَّ كيانكم أمنًا أزال عنكم الذي كان بكم حتى نعستم، وبهذا النعاس اطمأنت نفوسكم واستردتم ما فقدتموه من قوة وما أصابكم من ضعف. وهذا النعاس الذي راودهم لم يغيبوا به عن الوعي، يقول أبو طلحة أحَد المحاربين المسلمين ممن أصابه النعاس بعد غزوة أُحُد: لقد سقط سيفي من يدي مرارًا وآخذه ويسقط من يدي.

وهذا النّعاس ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي يُغطّي فريقًا منكم وهم المؤمنون المخلصون، أمّا المنافقون فلم يُلق عليهم النعاس وبقوا في خوفهم فزعين. والنعاس الذي راود المؤمنين بعد جلاء المعركة هو معجزة من الله لهم، فإنَّ أعداءهم كانوا حريصين على الإجهاز عليهم، فبقاء المسلمين في شبه نوم ـ والخائف لا ينام ـ دليل على حفظ الله لهم وحمايتهم من أعدائهم هذا حال المؤمنين، أمّا حال المنافقين فيصفه الله بقوله:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهذه الطائفة من المنافقين أوقعتهم أنفسهم في الهموم والغمّ، لا يهمّهم إلّا أمر سلامة أنفسهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وظنّهم بالله غير الحق هو أن الإسلام ليس بدين

الحقّ، وأنّ الله لن ينصر رسوله محمدًا، وهذا ظنّ أهل الجاهلية الذين لم يعرفوا الإيمان أصلًا، والجاهلية: تطلق على حقبة من تاريخ العرب قبل الإسلام حيث كان الجهل فاشيًا، والحقّ غائبًا، والشّرك بالله وعبادة الأصنام سائدين.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي يقول المنافقون لبعضهم البعض على سبيل الإنكار: هل لنا من النصر والظفر نصيب؟ أي ليس لنا من ذلك شيء، لأن الله سبحانه لا ينصر محمدًا في زعمهم، أو بمعنى: ليس لنا من الأمر أيّ شيء، فلسنا مسؤولين عن الهزيمة التي حدثت للمسلمين لأننا لم يكن لنا رأي يُطاع، فقد كان رأينا ألّا نخرج لمقاتلة المشركين وأن نظلّ في المدينة نقاتلهم عندما يدخلونها ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يثبّطون عزائم المسلمين: إن الأمر بيد الله يقدّرُ كيف يشاء، وقد قضى الله أن ينهزم المسلمون لحكمةٍ يعلمها سبحانه، وهي أن يستفيد المسلمون من هذه الهزيمة بسبب مخالفة بعضهم وصيّة النبي ﷺ، وبالتالي حتى لا يعودوا إلى مثل هذه المخالفة ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي هذه الطائفة من المنافقين يُضمرون في أنفسهم النِّفاق والشكّ في أمر الله والنَّدم على خروجهم للقتال مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي يقول المنافقون لبعضهم البعض: لو كان لنا من الرأي والتدبير شيء مستقلّ ما خرجنا من بيوتنا ولما قُتل منّا من قُتل، ولكن كنّا مغلوبين على أمرنا فحصل ما حصل، فيردُّ الله عليهم ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: لو كنتم في منازلكم وتخلّفتم عن القتال لخرج من بينكم المكتوب عليهم القتل إلى المكان الذي يكون فيه مصرعهم،

وعبّرت الآية عن مكان قتلهم بالمضاجع، جمع مضجع وهو مكان النوم، فهم يصرعون هناك ويكونون كالنيام إلى يوم البعث. وفي هذا يدعوهم الله أن يستسلموا لحكمه لما قدّره.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي وليختبر الله ما في صدوركم ـ أيها المؤمنون ـ بالبلايا والشدائد ليتميّز المخلص منكم من المنافق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليُطهّر قلوبكم مما علق بها من ذنوب ويزيل عنها الشكّ والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه حيث صرف عنكم العدوّ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما فيها من خير أو شرّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ أي إن الذين فرّوا منهزمين منكم يوم غزوة أُحد ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ حيث التقى جمع المسلمين مع جمع الكفار في المعركة ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إنما أوقعهم الشيطان بالزلل بما وسوسه في صدورهم وحسّنه لهم، والزلل: الوقوع في الخطأ والذنب ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي أوقعهم الشيطان في الزلل بسبب بعض ما اكتسبوا من ذنوب سابقة أدت بهم إلى منع تأييد الله لهم حتى فرّوا منهزمين، كما يشمل الذين وقعوا في الزلل رماة النبال الذين وضعهم رسول الله على الجبل وأمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم ولكنهم عصوا أمره وتركوا مراكزهم للحصول على الغنائم مما ترتب على ذلك هزيمة المسلمين كما ذكرناه سابقًا ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز الله عن ذنوبهم فلم يعاقبهم عليها بل غفر لهم لأن الله علم سلامة نواياهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي إنّ الله واسع المغفرة حليم لا يعجّل العقوبة لمن عصاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾

شرح المفردات

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ: سافروا لتجارة أو غيرها.

غُزًّى: جمع غازٍ، وهو المقاتل.

حَسْرَةً: حُزنًا وندامة.

تُحْشَرُونَ: تُجْمَعُون إلى الله للحساب يوم القيامة.

لِنْتَ لَهُمْ: أي كنت سَهلًا معهم فلم تعنّفهم إذ خالفوك.

فَظًّا: خشن الكلام سيئ الخُلُق.

غَلِيظَ الْقَلْبِ: قاسيًا ذا سطوة.

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ: لتفرّقوا عنك ولم يبقَ معك أَحَدٌ.

يَخْذُلْكُمْ: يترك العون لكم ونصرتكم.

دعوة المسلمين إلى الثبات على دينهم

ولمّا كانت غزوة أُحُد قد أدّت إلى وقوع الكثير من الضحايا في صفوف المسلمين وهذا مما يفتّ من عضدهم ويحول دون ثباتهم على دينهم، نزلت الآيات التالية تقوّي معنويات المسلمين وتُبيّن لهم حقيقة الموت ومكانة الذين يستشهدون في سبيل الله قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا تحذير للمؤمنين بأن يكونوا مثل الكافرين والمنافقين الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ههنا ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقالوا لإخوانهم في النفاق إذا سافروا في الأرض لتجارة أو غيرها فماتوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله فقُتِلوا ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا للسفر أو للغزو لَما ماتوا ولَما قُتِلوا ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرةً في قلوبهم. فيا أيها المؤمنون لا تكونوا مثلهم في هذا الاعتقاد فتصيبكم الحسرة على موتاكم وتضعفون عن مقاتلة أعدائكم وفي ذلك الذُلّ والهوان لكم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي أن الحياة والموت بيد الله، فقد يضفي الله السلامة على المسافر والمقاتل مع اقتحامهما لموارد الموت، ويميت المقيم القاعد في بيته مع توقّيه للأخطار والأخذ بأسباب السلامة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي بصيرٌ بأعمالكم فيُجازيكم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ فالله سبحانه يقسم بأنَّ من يموت أو يُقتل في سبيله طالبًا رضاه ينال منه سبحانه الغفران لذنوبه، والله سبحانه لا يغفر إلّا لمن يرضى عنه ويخصّه برحمته، والرحمة من الله للإنسان: الإحسان، ومن مظاهر إحسانه أن يرزقه الحياة الطيبة الميسّرة

في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة. ثم يُبيّن الله أن مغفرته ورحمته هما ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي خير مما يجمعه الكفار من أموال وعقارات ومقتنيات التي هي متاع قليل زائل.

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي على أي وجه كانت وفاتكم سواء كنتم في بيوتكم أو قُتلتم بأيدي أعدائكم وأنتم تجاهدون في سبيل الله، فإلى الله وحده مرجعكم حيث تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم.

وصية من الله لرسوله محمد ﷺ

ثم تأتي آيات القرآن التالية وفيها التفات إلى بعض صفات الرسول محمد ﷺ وما كان عليه من أخلاقٍ كريمة وقيادة حكيمة، مع بعض الوصايا من الله له بما هو قدوة لأُمّته من بعده:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة من الله منحك إياها يا محمد كنت ليّنًا مع المسلمين في كافة أحوالهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ ولو كنت غليظ الجانب سيئ الخُلُق وصاحب القلب القاسي، عديم الرحمة ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرق أصحابك عنك ونفروا منك ولم يطمئنوا إليك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي فاعْفُ يا محمد عمّن خالف أمرك وما ترتب على تلك المخالفة من هزيمة للمسلمين ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ واُطْلب من الله الغفران لهم على ما بدر منهم من عصيان لك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ لقد أمر الله سبحانه نبيّه محمدًا أن يشاور أصحابه في كل الأمور مع أن الوحي كان يأتيه من السماء وذلك تعليمًا لأُمّته ليقتدوا به، ويتّخذوا الشورى قانونًا لهم في كافة مجالات حياتهم.

وقد استشار النبي أصحابه في غزوات بدر وأُحُد والأحزاب وفي غير ذلك من الأمور التي تتعلق بمصالح المسلمين، وسار على هذا النهج ولاة أمور المسلمين وقادتهم.

والشورى أصل من أُصول الحكم في الإسلام ولهذا نرى في القرآن سورة من سُوَرِهِ باسم (سورة الشورى) وفيها يُثني الله على المؤمنين الذين اتخذوا الشورى قانونًا لهم في أُمور حياتهم ونظام حكمهم، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقديمًا كان يُقال: ما نَدِمَ من استشار، ومن أُعجب برأيه ضَلّ. وقال بعضهم: شاور من جرَّب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غاليًا وأنت تأخذه مجّانًا.

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ فإذا عقدت نيّتك على إمضاء ما تريد عقب المشاورة ووطّنت نفسك على تنفيذه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ أي اعتمد على الله وفَوِّض أمرك إليه، وهنا إشارة أن التوكل ليس إهمال التدبير كليّة بل لا بُدَّ أن يقترن بالعمل ومراعاة الأسباب التي توصل إلى النجاح مع تفويض الأمر إلى الله، وكم من أُناس اغترّوا بقوّتهم واعتمدوا على رأيهم وحده من دون أن يعتمدوا على الله، فكان الفشل من نصيبهم لأن هناك أُمورًا في الحياة فوق مقدورهم وهي بيد الله يصرّفها كيف يشاء ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ وأي منزلة أعلى من منزلة المتوكلين على الله الذين خصّهم الله بمحبته لأنهم آمنوا بالله حق الإيمان وأخلصوا نفوسهم له، وفوّضوا الأمر إليه ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ إن يخصّكم الله بالنصر فلن يغلبكم غالب ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي وإن يمنع الله نصره عنكم فليس لكم من ناصر سواه ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي

على الله وحده فَلْيَتَوكَّل المؤمنون لا على غيره، فالتوكل على الله أثر من آثار الإيمان بالله، فالذي يعتقد بأن الله بيده تدبير شؤون الناس وبيده النفع والضر يترك الأمر إليه، ويرضى بمشيئته، فلا يفزعه المستقبل وما يخبئه له من مصائب وكوارث، ويستعيض عن الخوف بالاطمئنان إلى عدل الله ورحمته، وقد أثنى الله في القرآن على من قال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤] وتفويض الأمر إلى الله يأتي بمعنى التوكل على الله.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ
ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

شرح المفردات

يَغُلَّ: يخون في الغنيمة.

تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ: تُعطى كل نفس جزاءها وافيًا.

بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ: رجع متلبّسًا بغضب من الله.

مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: أَنْعَمَ وَتَفَضَّل عليهم.

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا: أرسل الله فيهم رسولًا من عنده وهو محمد ﷺ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يُطَهِّرهم من الذُّنوب والأخلاق الذميمة.
﴿الْكِتَابَ﴾: المقصود به هنا هو القرآن.
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: هي السُّنَّة النبوية.

نفي الخيانة في الغنائم عن النبيّ ﷺ

لمّا كانت الآيات تتكلم عن غزوة أُحد تطرّق القرآن بالمناسبة إلى مسألة الخيانة في توزيع الغنائم أو الاستئثار بها، وقبل أن نذكر ما نزل من القرآن في هذا الصدد نذكر أسباب النزول.

رُوي أن رُماة النبال الذين أوصاهم النبي محمد ﷺ بالثبات في أماكنهم في الجبل خلف جيش المسلمين لحمايتهم، خالفوا وصية النبي ﷺ ونزل أكثرهم إلى ساحة المعركة بعد أن لاح لهم انتصار المسلمين قائلين فيما بينهم: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئًا فهو له ولا يُقسّم الغنائم لجميع المحاربين، فبلغ النبي ﷺ قولهم هذا وقال لهم توبيخًا: أظننتم أن نغلّ ولا نقسّم لكم.

كما رُوي أن قطيفة[١] حمراء فُقِدت في المغانم يوم غزوة بدر، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: لعلّ أن يكون النبيّ أخذها، فنزلت الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ[٢]﴾ أي ما صَحّ لنبي من الأنبياء ولا استقام أن يخون في الغنائم أو يحتفظ بها لنفسه أو يعطي قومًا ويمنع آخرين ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ومن يَخُن يأتِ بما خان فيه يوم القيامة يحمله على عنقه زيادة في فضيحته وعذابه ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثم تُعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شرّ، وهم

(١) قطيفة: ثوب يلقيه الرجل على نفسه.
(٢) يغل: الغلّ هو الخيانة في خفاء وهي في المغنم خاصة والسرقة منه.

لا يُظلمون بنقص في الثواب إن عملوا خيرًا، أو زيادة في العقاب إن أساءوا. ومن الغلّ هدايا العمال، أي الموظفين في خدمة الدولة الذين يتقبّلون الهدايا من الناس[١].

وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ استعمل عبدالله بن اللُّتْبيّة الأزدي على الصَّدَقة، فلما جاء قال: هذا لكم وهذه الهدية أُهديت إليَّ، فقال النبي ﷺ: «ألا جَلَسْتَ في بيتِ أُمّكَ وأبِيكَ حتى تأتيكَ هديتكَ؟ ثم قال: والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، ما يَأْخُذُ أَحَدُكم شيئًا بغير حقّه إلّا جاء يوم القيامة وهو يحمله على عنقه...»[٢].

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ هذه الجملة جاءت بصفة الاستفهام الإنكاري عن المساواة بين المُحسن والمُسيء، أي ليس من اتّبع مرضاة الله بطاعته وترك معصيته كمن رجع بغضب شديد من الله جزاء ظلمه وعصيانه له ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهذا الذي غضب الله عليه سيكون مصيره جهنم يوم القيامة ليعذّب بنارها، وبئس المصير الذي ينتظره.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ والدرجة: هي الرُّتبة والمنزلة، فالذين رضي الله عنهم هم متفاوتون في النعيم حسب طاعتهم لله وأعمالهم الصالحة، والذين سخط الله عليهم متفاوتون في العذاب حسب عصيانهم لله وأعمالهم السيئة ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله سبحانه يعلم عمل كل إنسان علم من يراه ويبصره وسيجزي كل نفس ما كسبت من خيرٍ أو شرّ.

(١) يحضر في ذهني ما قرأته يومًا أن وزيرًا في إنكلترا تقبّل هدية زهيدة فكان في ذلك فضيحة أدت إلى استقالته. والجدير بالذكر أن الإسلام له السبق في ذلك مما يشهد بعلو المبادئ الإسلامية ورفعتها.
(٢) أخرجه الإمام مسلم.

ثم يُبيِّنُ اللهُ فضله على المؤمنين العرب بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لقد أنعم الله وتفضّل على المؤمنين العرب كما تفضّل على سائر المؤمنين في العالم حين أرسل الله إلى العرب رسولًا عربيًّا من جنسهم، ومن أشرفهم نسبًا يتكلّم بلغتهم ليفهموا قوله، وليطّلعوا على أحواله وما كان عليه من صدقٍ وأمانةٍ وسيرة حسنة قبل نبوّته وهذا أدعى إلى تصديقه والوثوق به ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وهذا الرسول يقرأ على قومه آيات القرآن المعجزة في بلاغتها ودلالتها على قدرة الله وحكمته ووحدانيته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويُطَهّرهم من الأخلاق الذميمة والمعتقدات الوثنية الباطلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلّمهم القرآن وشرائعه وأحكامه ويعلّمهم الحكمة وهي أقوال النبيّ وأفعاله وتعرف بالسُّنّة النبويّة، وفيها المنهاج الصالح والسلوك القويم لسعادة الإنسان ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقد كان العرب قبل البعثة النبوية في ضلال واضح لا يعرفون حقًّا ولا يهتدون إلى صواب.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ
عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى
ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ
قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ
أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ
قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

شرح المفردات

قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا: أي من أين أتتنا هذه المصيبة.

ادْفَعُوا: أي ادفعوا العدوّ عن دياركم وأهليكم.

وَقَعَدُوا: تخلّفوا عن الجهاد.

فَادْرَءُوا: فادفعوا.

أسباب هزيمة المسلمين بأُحُد

ويتابع القرآن الكلام عن غزوة أُحُد التي أُصيب فيها المسلمون بخسائر فادحة في الأرواح مما جعلهم يتساءلون عن أسباب هذه الهزيمة التي حلّت بهم، لذا نرى القرآن يُجيب عنها بالآيات التالية:

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ أي أجزعتم وتخاذلتم ـ أيها المؤمنون ـ حين حلّت بكم مصيبة بغزوة أُحُد إذ قُتِلَ منكم سبعون شهيدًا، ولكنكم في غزوة بدر قد أوقعتم ـ أيها المؤمنون ـ بالمشركين ضعف المصيبة التي حلّت بكم إذ قتلتم منهم سبعين مُحاربًا وأسَرْتُم سبعين، والأسير في حكم المقتول لأن الآسر قد يقتل أسيره ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي قلتم يوم انهزامكم من أين جاء هذا البلاء الذي حَلَّ بنا وقد وعدنا الله بالنصر؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد إنّ ما أصابكم هو بسبب مخالفة ما أمرْتهم به بأن يبقى رماة النبال في أماكنهم في الجبل لحماية ظهور المسلمين ولكن أكثرهم تركوا أماكنهم لطلب الغنائم وبهذا انكشفت ظهور المسلمين للمشركين الذين أمعنوا فيهم قتلًا وجراحًا ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله بالغ القدرة على كل شيء فهو ينصركم حين تستحقون النصر.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ أي وما أصابكم أيها

المؤمنون من قتل وجراح يوم التقى جمعكم وجمع المشركين في غزوة أُحُد فبإرادته سبحانه وعلمه وقضائه ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليظهر إيمان المؤمنين بثباتهم في القتال الذين يبغون إعلاء كلمة الله حسب ما قدَّره في علمه الأزليّ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليظهر كُفر المنافقين وما ظهر منهم من خذلان وانصراف عن القتال حسب ما قدَّره الله في علمه الأزليّ وبهذا يتميّز المؤمنون عن المنافقين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي قال النبي ﷺ والمؤمنون معه للمنافقين: تعالوا قاتلوا المشركين معنا لنصرة الإسلام ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ أو ادفعوا عنّا سطوة المشركين بالانضمام إلينا فيكثر عددنا ويرهبوننا فيحجموا عن قتالنا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي قال المنافقون للمؤمنين: لو نعلم أنكم تُقاتلون لانضممنا إليكم، ولكن ما أنتم عليه ليس بقتال، أو بمعنى: لو نعلم فنون الحرب وأساليبها لاتّبعناكم.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ هم في تلك الحالة أقرب للكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنهم يتظاهرون بالإيمان وليس في قلوبهم منه شيء، فإيمانهم موجود في أفواههم فقط معدوم في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ والله سبحانه أعلم بما يُخفون وما يضمرون في قلوبهم من الكفر والبغضاء للمسلمين.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ أي هؤلاء المنافقون الذين تخلّفوا عن الجهاد، قالوا لأهلهم وعشيرتهم الذين هم مثلهم في النّفاق ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وتخلّفوا عن القتال كما تخلّفنا يوم غزوة أُحُد ما قُتِلوا في المعركة ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء: إذا كان التخلُّف عن القتال يُنجي من الموت كما تزعمون، فادفعوا عن أنفسكم الموت الذي كتبه الله عليكم حين يأتي أجله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن الموت لن يقع بكم إذا تخلَّفتم عن الجهاد وقعدتم في بيوتكم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ
(١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

شرح المفردات

لَا تَحْسَبَنَّ: لا تظنَّنَّ.

وَيَسْتَبْشِرُونَ: يفرحون.

الْقَرْحُ: الجراح.

جَمَعُوا لَكُمْ: جمعوا الجيوش لقتالكم.

حَسْبُنَا اللَّهُ: يكفينا الله ويحفظنا مما أرادوا بنا من الأذى.

فَانْقَلَبُوا: فرجعوا.

لَمْ يَمْسَسْهُمْ: لم يصبهم.

ثواب الاستشهاد في سبيل الله

لقد أحدثت الخسارة الجسيمة التي أُصيب بها المسلمون في غزوة أُحد جرحًا بليغًا في نفوسهم، وألمًا شديدًا على فقد من استُشهد من أهلهم وأصحابهم حين استشهد منهم سبعون مقاتلًا، فنزلت الآيات التالية تُواسي المسلمين وتبيِّن منزلة الشهيد عند الله وما أَعَدَّ له من الثواب والكرامة، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾ أي لا تظنَّنَّ يا محمد أو أيها المستمع أن الذين قُتِلوا بغزوة أُحد دفاعًا عن الإسلام أموات لا يحسّون شيئًا ولا يتنعّمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بل إنهم أحياء عند ربهم في الجنة يُرزقون فيها ويتنعّمون بألوان النعيم التي أسبغها الله عليهم.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي هم فرحون مسرورون بما أعطاهم الله من كرامته وفضله وجزيل ثوابه، لذا فَلِمَ الحسرة على فراقهم؟ والحال أنّ الناس كلهم يغبطونهم على منزلتهم عند الله ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي هؤلاء الشهداء يتوقّعون أن تأتيهم البشارة في وقت قريبٍ عن استشهاد الذين تركوهم من بعدهم أحياء، راجين لهم بأن يُقتلوا في سبيل الله لينالوا تلك المنزلة العظيمة التي حصلوا عليها باستشهادهم في سبيل الله ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والخوف يكون بسبب توقع المكروه الذي قد يصيبهم في المستقبل، والحزن بسبب أن تفوتهم المنافع التي كانت لهم في الماضي، فبيَّن الله أنه لا خوف على هؤلاء الشهداء مما سيأتيهم من أهوال يوم القيامة ولا حُزن لهم على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ هنا تأكيد على أن الشهداء في منتهى الفرح والسعادة بسبب ما تفضّل الله عليهم بإدخالهم الجنة ونَيْلهم

رضوانه ومغفرته ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله لا يُبطل جزاء من صدَّق رسوله محمدًا واتَّبعه وعمل بما جاء به من عند الله.

هذا وقد بيَّن رسول الله ثواب الذين يُقتلون في سبيل الله وما هم عليه من نعيم بقوله: «لمّا أُصيب إخوانكم يوم أُحُد جعل الله أرواحهم في أجوافِ طير خضرٍ تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظِلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحُسْنَ مقيلهم[1]، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صَنَعَ اللهُ بنا لئلّا يَزْهدوا في الجهاد...»[2]

ثم يشير القرآن إلى غزوتين قام بهما المؤمنون ولكن لم يحصل فيهما قتال، الأولى تُعرف بغزوة (حمراء الأسد) والثانية تعرف بغزوة (بدر الموعِد).

غزوة حمراء الأسد: لمّا انصرف أبو سفيان وأصحابه بعد معركة أُحُد وبلغوا مكانًا يسمى (الروحاء) ندموا وهمُّوا بالرجوع للقضاء على المسلمين فبلغ رسول الله خبرهم، فأراد أن يُرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فطلب رسول الله من أصحابه الخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا أُريد أن يخرج معي أحَدٌ إلّا من كان معي أمس في القتال. فخرج رسول الله ﷺ مع قومٍ من أصحابه حتى بلغوا مكانًا يُسمى (حمراء الأسد) وهي تبعد ثمانية أميال عن المدينة المنوّرة. وكان بأصحاب رسول الله الكثير من الجراحات التي أُصيبوا بها في غزوة أُحُد فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر من الله، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا ورجعوا إلى مكة، وفي هذه الغزوة يمدح الله المؤمنين بقوله:

(١) مقيلهم: موضع القيلولة والاستراحة في الظهيرة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي أُولئك الذين أجابوا داعي الله وأطاعوا رسوله بالخروج للجهاد في سبيل الله من بعد ما نالهم الجرح العميق في غزوة أُحُد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهؤلاء الذين أحسنوا القيام بما أمرهم الله ورسوله به، واتقوا عصيانهما، لهم أجر عظيم عند الله يتناسب مع جهادهم وصبرهم.

غزوة بدر الموْعِد: رُوي أن أبا سفيان لمّا عزم على الانصراف إلى مكة عقب غزوة أُحُد نادى محمدًا بقوله: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال رسول الله ﷺ: ذاك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى.

فلمّا كان العام المقبل خرج أبو سفيان ومعه جند من أهل مكة حتى نزلوا مكانًا يدعى (مَجَنَّة)[1] فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع ومَن معه إلى مكة. وفي تلك الأثناء لقي أبو سفيان نُعَيم بن مسعود وكان قاصدًا مكة لأداء العمرة، فقال له أبو سفيان: إني واعدت محمدًا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإنّ هذا عام جدب ولا يصلحنا إلّا عام خصب فيه المرعى لأنعامنا ونشرب اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة، فالْحَقْ بالمدينة فثبِّطْهم[2] ولك عندي عشرة من الإبل. فأتى نُعَيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم إلى دياركم وقتلوا الكثير منكم، فإن ذهبتم لملاقاتهم لم يرجع منكم أحد، فأحدث كلامه رهبة في قلوب بعض المؤمنين، فلما عرف رسول الله ذلك قال:

(١) مَجَنَّة: موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مرّ الظهران.
(٢) فثبّطهم: عوّقهم وأضعِف عزيمتهم.

«والذي نَفسُ محمدٍ بيدهِ لأخرجنَّ إليهم ولو لم يخرج معي أحَد، فخرج ومعه سبعون راكبًا يقولون (حسبي الله ونعم الوكيل) حتى وافى (بدر) في الموعد الذي عيَّنه مع أبي سفيان، فأقام ثمانية أيام فلم يلق أحَدًا، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة، وقصد المسلمون سوق بدر وكانت معهم بضاعة فباعوا واشتروا وربحوا ربحًا وفيرًا ثم انصرفوا إلى المدينة المنوّرة سالمين غانمين.

وقد أشار القرآن إلى هذه الغزوة التي لم يحصل فيها قتال بقوله:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ[1] إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ والناس الأُولى في الآية المرادُ بها نعيم بن مسعود، وهو الذي حاول تثبيط المؤمنين والناس الثانية المراد بها أبو سفيان وجنده. والمعنى: إن نعيم بن مسعود قال للمسلمين: إن أعداءكم قد جمعوا لكم جيشًا كبيرًا لمقاتلتكم فخافوهم ولا تتورَّطوا بقتالهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ ولكن تخويفه للمسلمين لم يجدِ نفعًا بل زادهم إيمانًا بالله ويقينًا بتأييده لهم بالنّصر ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي يكفينا الله أمرهم، فإذا كان المشركون يستنصرون بجيشهم الكبير فنحن كفايتنا بالله الذي هو ناصرنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ والوكيل: هو الذي يُفوَّض الأمر إليه ويُعتمد عليه وهو الناصر المعين.

ثم خرج المسلمون للقاء جيش المشركين، ولكن المشركين جُبنوا عن لقاء المسلمين وعادوا أدراجهم إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة السلامة، قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فانقلبوا: أي عاد المؤمنون من وجهتهم هذه كما خرجوا لم يُقتلوا ولم يُقاتِلُوا بل صحبهم في هذه العودة أمور أربعة:

(١) الناس: لفظ الناس جاز في اللغة إطلاقه على الإنسان الواحد.

أولها: نعمة من الله إذ خذل أعداءهم وألقى الرعب في قلوبهم.

ثانيها: الفضل العظيم وهو ما جَنَوه في تجارتهم من ربح وفير.

ثالثها: السلامة من السوء حيث لم يصبهم قتل ولا جراح.

رابعها: اتّباع رضوان الله، وهو أعظم ما يناله المؤمن حيث يحظى بالنعيم الدائم في الآخرة، ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وهو سبحانه صاحب فضل عظيم على عباده.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يُخوّف أولياءه: في هذه الجملة حذف حرف الجرّ، والتقدير: يُخوّفكم الشيطان يا معشر المؤمنين بأنصاره أمثال أبي سفيان وغيره من المشركين، وأولياء: جمع وَليّ، وهو الصديق والنصير والمحبّ، فالذي يُخوِّفكم أيها المؤمنون عن لقاء أعدائكم ومقاتلتهم هو الشيطان بواسطة أتباعه الضّالين ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فلا تخافوا ـ أيها المؤمنون ـ أولياء الشيطان وأتباعه ـ وهم المشركون ـ ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم لربكم، فالله سبحانه قد كفل لكم النصر والظفر ﴿وَخَافُونِ﴾ ولكن خافوا ربكم ولا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم صادقي الإيمان قائمين بما يفرضه عليكم من التضحية في سبيل الله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا
نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ
لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾

شرح المفردات

حَظًّا: نصيبًا.

اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ: استبدلوا الإيمان بالكفر.

نُمْلِي لَهُمْ: نمهلهم ونتركهم في غيّهم ولا نُعجّل في عقوبتهم.

لِيَذَرَ: ليترك.

يَمِيزَ: يفصل بعضه عن بعض.

يَجْتَبِي: يختار.

بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ: بما أعطاهم الله تفضّلًا منه من مال وغيره.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾: سيُجعل الذي بخلوا به طوقًا في أعناقهم يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي كل ما في السماوات والأرض يؤول لله سبحانه لأنه المالك لهما.

مصير الكافرين في الآخرة

وبعد هزيمة المسلمين في أُحُد أظهر المنافقون الشماتة بالمسلمين وقالوا: لو كان محمد رسولًا من عند الله ما غُلِب، وقالوا في حقّ الذين استشهدوا من المسلمين: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا للمعركة لما ماتوا، إلى آخر الأقوال التي كانوا يُشيعونها في صفوف المسلمين لإلقاء الوهن واليأس في قلوبهم، لذا نزلت الآيات تُواسي الرسول محمدًا وتُثبِّت قلبه بقوله تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ اختلف المفسرون في هؤلاء المسارعين في الكفر، فقيل: هم المنافقون، وقيل: هم قوم من الكفار أسلموا ثم ارتدّوا، وقيل: هم رؤساء اليهود، وحُزْنُ رسول الله عليهم يكشف أنّ الشُّغل الشاغل له هو أمر دين الإسلام ورغبته الملحّة بأن يؤمن الناس بالله الواحد ويصبحوا مسلمين، لذا يُواسي الله رسوله بقوله **﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾** أي إنهم بمسارعتهم في الكفر لن يضروا الله في شيء، فعاقبة كفرهم وبالٌ عليهم لا عليك ولا على المؤمنين، وإنّ كفرهم لن يُنقِصَ من سلطان الله شيئًا، فعظمة الله لا ينقصها كُفْرُ من كَفَرَ، ولا يزيدها إيمان من آمن **﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾** فالله سبحانه أراد بسبب كفرهم أن لا يجعل لهم نصيبًا من الثواب في الآخرة بحرمانهم من نعيم الجنة **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** وإضافة إلى ذلك لهم عذاب عظيم في جهنّم يفوق التصوُّر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ إنّ الذين اختاروا الكفر وسلكوا سبيله واتخذوه عقيدة وسلوكًا بَدَلًا من الإيمان **﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾** أي

إنهم لن يضرّوا الله بشيء، وكيف يضرونه وله ملك السماوات والأرض وهو يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** وبعد أن وصف الله العذاب في الآية السابقة بقوله: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**، وصفه الله هنا بأنه أليم شديد الإيلام.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ الإملاء: الإمهال والإطالة في العمر، وأملى الله للكافر: أمهله ولم يُعَجِّل عقوبته، والمعنى: لا يظنَّنَّ الذين كفروا أنّ إمهال الله لهم بإمدادهم بطول العمر وإعطائهم نعيمًا في الدنيا وعدم تعجيله بعقوبتهم على ما فعلوه بالمسلمين هو خير لهم **﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾** إنما يُمهلهم الله ويطيل أعمارهم ويؤخّر عقوبتهم ليقترفوا مزيدًا من المعاصي ومن ثم تزداد عقوبتهم **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** أي عذاب فيه ذلٌّ ومهانة لهم مقابل ما كانوا عليه في الدنيا من كبرياء واعتزاز.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس من شأنه تعالى أن يترك المؤمنين على ما هم عليه، فيهم المؤمن الصّادق في إيمانه، وفيهم المنافق الذي يضمر الكفر، بل لا بُدَّ من الابتلاء لهم بالتكاليف الشاقة كالجهاد **﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** حتى يفصل الله ويفرّق بين المؤمنين والمنافقين، وهذا ما ظهر في غزوة أُحُد حيث كشف الله لرسوله محمد والمؤمنين حجم النفاق ومداه حين انسحب عبدالله بن أُبيّ، سَيِّد المنافقين مع جماعته من صفوف المسلمين ولم يشتركوا مع المسلمين في المعركة، إضافة إلى ما أشاعوه بين المسلمين من الأخبار التي فيها ما يثبط همّتهم ويزعزع إيمانهم، وكما ظهر أمر المنافقين ظهر بالمقابل إخلاص المؤمنين واستماتتهم في سبيل إعزاز دينهم ونصرته. **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾** أي وما كان الله ليطلعكم ـ أيها المؤمنون ـ على ضمائر قلوب عباده فتعرفوا منهم المؤمن من المنافق **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾** ولكن الله يصطفي مِن رُسله من يشاء فيُطْلعه

على بعض ما في ضمائر بعضهم وعلى شـيء من أُمور الغيب الذي يختصّ به ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُـلِهِ﴾ فداوموا ـ أيُّها المومنون ـ على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسله الذين أرسلهم لهداية الناس ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإن تؤمنـوا بالله حق الإيمان وتتقوا مخالفة ما أمركم الله به ورسـوله فلكم في مقابلة ذلك ثواب عظيم عند الله يوم القيامة.

وبعد أن حثّ القرآن على الجهاد في سبيل الله حثّ على الإنفاق في سبل الخير: ﴿وَلَا يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله مـن فضله من مال فلا ينفقون منه في سـبيل الله ولا على الفقراء، لا يظن هؤلاء أن البخل هـو خير لهم ﴿بَلْ هُوَ شَـرٌّ لَهُمْ﴾ بل عاقبته وخيمة عليهم، فالبخل من جهة يُضعف الأُمَّة بعدم الإنفاق على عِدَّة القتال القويّة في وجه الأعداء، ومن جهة أخرى فالبخل على الفقراء يُولّد الحقد في قلوبهم فينشأ من ذلك الثورات وصراع الطبقات. وتأمّل قوله تعالى: ﴿يَبْخَلُـونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ تذكيـر للبخلاء بأن المال الذي في أيديهم هو مـال الله أعطاهم إيَّاه من فضله فهو وديعة بين أيديهم فلا يجدر بهم أن يبخلوا به. وهذا المال الذي يمسكونه ويبخلون به ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَـا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي سـيجعل الله هذا المال الـذي بخلوا به طوقًا مؤلمًا في أعناقهم يوم القيامة مَثَّلَهُ النبـي ﷺ بقوله: «مَنْ آتاهُ اللهُ مَالًا فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ لَهُ يوم القِيامَةِ شُجاعًا أَقرَعَ[1]، لَهُ زَبِيبتَانِ[2]، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزَمَتَيْهِ[3]، يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ»[4] ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا...﴾ الآية.

---

(١) الشجاع الأقرع: الثعبان القوي الكثير السم.

(٢) الزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عينَيْ الثعبان وهما تكونان لأخبث الحيات.

(٣) اللّهزمتان: شدقاه، وهما عظمتان ناتئتان في عظمتي الحنك.

(٤) أخرجه البخاري.

﴿وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالبخلاء لن يأخذوا شيئًا بعد وفاتهم مما يكنزون، إنما يرثه الله سـبحانه الذي له ميراث السماوات والأرض، فلا هم ينتفعون به بعد موتهـم ولا هم ناجون من إثمه يـوم القيامة ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله سبحانه يعلم ما تعملون لا يخفى عليه شيء، وسيجزي كلًّا بما عَلِمَهُ من أعمالهم.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (١٨٤)﴾

شرح المفردات

إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا: أمرنا وأوصانا في التوراة.

أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ: أن لا نصدِّق لرسول في نبوّته.

بِقُرْبَـانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ: القربـان ما يتقرب به إلى الله من حيـوان وغيره يوضع في مكان فتنزل عليه نار من السماء فتحرقه.

بِالْبَيِّنَاتِ: بالحجج والمعجزات التي تشهد بصدق رسول الله.

الزُّبُر: الكُتب التي تحوي المواعظ والزواجر.
الْكِتَابِ الْمُنِيرِ: الكتاب الواضح.

افتراءات اليهود على الله

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر بعض مساوئ اليهود وسوء أدبهم مع الله، فقد رُوي أنه لمّا أنزل الله قولـه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ [1] ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: نرى إلّه محمد يستقرض منّا، فنحن إذن أغنياء وهو فقير، فأنزل الله قوله موبّخًا لهم:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أي لقد علِمَ الله هذا القول الشنيع من اليهود الذين قالوا: إنّ الله فقير ونحن أغنياء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي سيأمر الله الملائكة الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم وهذا تهديد ووعيد لهم، ثم قرن الله قولهم المنكر بفعلٍ شنيعٍ من أفعالهم وهو ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيان ما عليه طبيعتهم من الشرّ والظلم واستهانتهم بدين الله، لأنّ قتل الأنبياء هو تعدٍّ على الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى الناس، ثم يُقال لهم من جهة الله تعالى يوم القيامة جزاء قولهم وأفعالهم هذه وهم يعذّبون بنار جهنم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وإنّ ما ذكره القرآن عن اليهود الذين كانوا على عهد النبي ﷺ من قتل الأنبياء وهم لم يباشروا قتلهم بل فعله أسلافهم لأنهم كانوا راضين عنه مُقرّين بما ارتكبوا، متعاطفين معهم، ومن رضي عن جريمة فكأنّه فعلها، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمم متكافلة في الأمور العامة، إذ يجب على الأُمّة

(١) القَرضُ: هو أن يُعطي الرجل غيره مالاً على أن يردّه إليه بعد أجل معلوم، وقد أطلق الله إنفاق المال على الفقراء ووجوه الخير قَرْضًا له وهو الغني الذي يرزق الناس جميعًا، ترغيبًا بالإحسان وبيان ثوابه الجزيل.

الإنكار على فاعل الشرِّ من أفرادها والأخذ على يده وإلّا شاع فيها الشرور والمنكرات فتستحق عذاب الله.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب الشديد بنار جهنّم هو بسبب ما اقترفتم في الدُّنيا من الآثام. وإضافة ما فعلوه من الآثام إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تُزاول بها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي أنّ الله لا يُعاقب إنسانًا بغير استحقاق للعقوبة، وقد أطلق الله على الناس جميعًا لفظ (العبيد) تحقيقًا لعبوديتهم لله، وأنّ الله خلقهم لعبادته وطاعته، ومن خرج عن طاعته فقد استحقّ عقوبته.

ثم يُبيِّن القرآن ما طلبه اليهود من الرسول محمد بأن يأتيهم بالمعجزة التالية: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصَّيف وكعب بن أسد، وفنحاص بن عازوراء وغيرهم أتوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله بعثك إلينا رسولًا، وأنزل عليك كتابًا، وقد عَهِدَ الله إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقُربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدّقناك: فأنزل الله هذه الآية.

والقربان ما يتقرب به الإنسان إلى الله من صدقة أو ذبيحة، وقد كان بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون القرابين فيضعونها وسط البيت والسقف مكشوف فيقوم النبيّ في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل واقفون حول البيت فتنزل نار من السماء فتأكل تلك القرابين وتحرقها فيكون ذلك علامة القبول وإذا لم تُقبل تبقى على حالها. هذا وإن معجزات موسى والسيد المسيح عليه السلام كانت أشياء سوى هذا القربان.

وما طلبه اليهود في زمن النبيّ محمد هو من مفترياتهم وأباطيلهم لأن

معجزة القربان الذي تأكله النار هي وسائر المعجزات التي يؤيد بها رسله سواء، وما كان لهم أن يعيّنوا نوع المعجزة التي يؤيد بها رسله لأن ذلك شأن من شؤون الله حيث يختار لنبيه من المعجزات ما يرتأيه له، وهذه الفئة من اليهود طلبت هذه المعجزة من الرسول محمد لا على سبيل الاسترشاد والاقتناع بنبوّته ولكن على سبيل التعنُّت والرفض. ثم أمر الله رسوله محمدًا أن يخاطبهم بقوله:

﴿**قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم: قد جاءكم رسل من عند الله قبلي بالمعجزات الواضحة ﴿**وَبِالَّذِي قُلْتُمْ**﴾ أي وبالذي ادّعيتم بأنه إذا جاءكم رسول من عند الله بالقربان الذي تأكله النار تقرّون به وتصدّقون به ﴿**فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أي لماذا قتلتم أولئك الأنبياء أمثال زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الواضحة، إن كنتم صادقين في دعواكم بأن تصدّقوا الرسل وتطيعوهم متى أتوكم بما يشهد بصدق نبوتهم؟

﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ فالله سبحانه يُواسي رسوله محمدًا بقوله: إن كذّب اليهود نبوّتك فقد كذّب أسلافهم رُسل الله قبلك ﴿**جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ وهؤلاء الرسل جاءوا بالمعجزات الواضحة، **والزُّبُر**: جمع زبور ويطلق على كل كتاب من عند الله فيه الشرائع والأحكام والمواعظ الزاجرة كالتوراة والإنجيل وصحف داود. **والكتاب المنير**: أي الكتاب الواضح الذي يظهر الحق من الباطل ويضيء الطريق إلى الله.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ
فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ
ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ
وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾﴾

شرح المفردات

تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ: تُعطون جزاء أعمالكم وافيًا غير منقوص.
زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ: نُحِّي عنها وأُبْعِدَ.
مَتَاعُ الْغُرُورِ: أي ما يتمتّع به الناس هو خداع زائل.
لَتُبْلَوُنَّ: لَتُخْتَبَرُنَّ وتُمْتَحَنُنَّ.
أُوتُوا الْكِتَابَ: هم اليهود والنصارى.
الَّذِينَ أَشْرَكُوا: هم كفّار العرب.
عَزْمِ الْأُمُورِ: من صواب التدبير مما يجب العزم عليه.
مِيثَاقَ: هو العهد المؤكّد.

فَنَبَذُوهُ: طرحوه ونقضوا عهده.

وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا: واستبدلوا به شيئًا تافهًا من منافع الدنيا وملذّاتها.

وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا: أي يحبون أن يُثنى عليهم ويُذكَروا بخيرٍ على شيءٍ لم يفعلوهُ.

بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ: بمنجاةٍ من العذاب في الآخرة.

الدنيا دار ابتلاء

ولقد كان حديث الموت هو الطاغي بعد معركة أُحُدٍ لكثرة الضحايا في صفوف المسلمين، فنزلت الآية تُواسي المسلمين وتُبيِّن حتمية الموت الذي لا مفرّ منه والذي كتبه الله على النّاس جميعًا، قال الله تعالى:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ عبَّر الله سبحانه عن حلول الموت بالمذاق، وقد يكون المذاق مُرًّا تعافه النفس يتبعه عقاب من الله على ما فرّط الإنسان في جنب الله وأسرف في عصيانه، وإما أن يكون مذاق الموت حُلوًا هنيئًا تحوطه البشرى والرضا من الله، ويتبعه النعيم في الآخرة جزاء طاعته لله وعمله الصالح ﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ والأجر: الجزاء على العمل خيرًا كان أم شرًّا، وتوفية الأجر هي إعطاؤه كاملًا لا نقص فيه ولا زيادة، ويشمل الثواب والعقاب تبعًا لعمل الإنسان ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ أي فمن نُحّيَ عن نار جهنم وأُبعِدَ عنها يوم القيامة، وظفر بدخول الجنّة فقد نال السعادة الأبديّة ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ والمتاع: هو ما يَنعَم به الإنسان وينتفع به، والغُرور: هو الخِداع والطمع في الباطل، فالحياة الدُّنيا ما هي إلّا متاعٌ زائلٌ تُخدعون به، ثم تُحاسبون على أعمالكم يوم القيامة فلا تغترّوا بالدُّنيا ولا تنخدعوا بمظاهرها الخلّابة وشهواتها الزّائلة.

فكم من الناس قضوا أعمارهم في تشييد القصور الفخمة ثم أتاهم الموت فجأة فلم ينعموا بسُكْناها.

وكم من الناس عملوا ليلًا ونهارًا في سبيل جمع المال ليتمتعوا به فباغتهم الموتُ وتركوا ما جمعوه لورثتهم، وصدق القائل:

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ ... وَيأكُل المالَ غيرُ مَن جَمَعَه

﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**﴾ أي واللهِ، لَتُختَبَرُنَّ وتُمتَحَنُنَّ بالمصائب في أموالكم وأنفسكم حتى يتبيَّن الجازع من الصابر والمخلص من المنافق.

والابتلاء في الأموال يكون إما بنقصها عن طريق التجارة أو تلفها عن طريق الزراعة، أو استيلاء الأعداء عليها أو غير ذلك.

والابتلاء بالأنفس هو عن طريق موت الأحبَّة من الأهل والأصدقاء أو الإصابة بالأمراض المستعصية أو القتل والجراح الناجمة عن الحروب .

فالحياة دار ابتلاء لا تستقرُّ على حال، والمؤمن مُعرَّضٌ دائمًا للابتلاء وعند الابتلاء يظهر صدق المؤمن بتقبّل البَلاء بالصبر واليقين بأنّ ما أصابه هو ما قدّره الله عليه مستحضرًا في ذهنه قول الله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

﴿**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا**﴾ أي وَلَتَسْمَعُنَّ ـ أيها المؤمنون ـ من اليهود والنصارى الذين كانوا قبلكم ومن الذين أشركوا بالله من العرب وغيرهم من أعداء الإسلام أذًى كثيرًا بالطعن بالإسلام ونبيّ الإسلام أو غير ذلك من الأذى الذي يصيبكم أنتم بسبب إيمانكم ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ وإن تصبروا على تلك الشدائد التي تنزل بكم وتتّخذوا لكم

وقايــة منها باللجوء إلــى الله، إن تفعلوا ذلك فإنَّ ذلك مــن الأمور التي يجــب أن يعزم عليها كل إنســان، ومن الجِدِّ والاجتهــاد الذي يجب أن تُوطِّنوا أنفسكم عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي واذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكَّــد على اليهود والنصارى، والمُراد بذلــك علماؤهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ بأن يبيِّنوا للناس ما في التوراة والإنجيل من البشارات والأدلَّــة على صدق نبــوَّة محمد، وأن لا يكتموا شــيئًا من ذلــك ويخفوها عن الناس ﴿فَنَبَــذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فألقــوه وراء ظهورهم ونقضوا عهد الله ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ واســتبدلوا به ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا بأن جعلوا دين الله موردًا للرّزق والجاه وغير ذلك من الأطماع والمآرب الذّاتيّة ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ فقبحًا لما فعلوا حيث اســتبدلوا عهد الله بثمن بخس حقير من أطماع الدنيا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، والمعنى: لا تظنَّنَّ يا محمد أو أيها المؤمن أن هؤلاء الذين يفرحون بما فعلوا من أستبدالهم عهد الله بأطماعهم الدنيوية، ويحبّــون أن يمدحهم الناس على مــا لم يفعلوه، وفرحوا بذلــك وأحبُّوا أن يُوصفوا بالدِّيانة والفضل. وقيل إن هــذه الآية نزلت في المنافقين، فقد رُوي أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو تخلَّفوا عنه، فإذا جاء أعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال، ونحو هذا، فيُظهر رســول الله القبول بأعتذارهم ويســتغفر لهم، ففضحهم الله بهذه الآية، والآية حكمها عامّ لكل مــن يريد أن يمدحه الناس وهو خَــالٍ من الفضائل ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظنَّنَّ أنَّ هؤلاء بمنجاةٍ في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب مؤلم أشدّ الإيلام في جهنم.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ
فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا
سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا
وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾

شرح المفردات

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: تعاقُبهما ومجيء كل منهما خلف الآخر.

لَآيَاتٍ: وآيات، جمع آية وهي العلامة الواضحة، وسُــمي خلــق الكون آية لأنه علامة على وجود الله وقدرته العظيمة.

لِأُولِي الْأَلْبَابِ : أصحاب القلوب الثاقبة التي تُدرك حقائق الأمور.

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ: أي مضطجعين.

مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا: ما خلقت هذا الكون عَبَثًا وهزلًا ولَعِبًا.

سُبْحَانَكَ: تنزهت يا ربّ عن كل عَيْبٍ ونقصٍ، وعن ما لا يليق بك.

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ: فأحفظنا من عذابها.

أَخْزَيْتَهُ: فضحته وأهَنْتَه أو أهْلَكْتَه.

فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا: والمغفرة من الله هي أن يصون العبد من أن يمسّه عذاب بسبب ذنوبه.

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا: التكفير، التغطية والستر بأن يُزيل عنهم صغائر ذنوبهم.

وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ: أي في زُمْرَتهم وعلى مثل أعمالهم، والأبْرار هم الأنبياء والصالحون.

الْمِيعَادَ: هو الوعد.

التفكر في خلق الكون يؤدي إلى الإيمان بالله

ويتابع القرآن فيبيّن لنا عظمة الله سبحانه، فهو المالك لهذا الكون من سماواته وأرضه، وهو الخالق والمُبدع والمُنشئ لهما من العَدَم، وهو الحافظ لهما من الفناء والمدبِّر لشُؤونهما:

﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي والله وحده له مُلك السماوات والأرض، وتقديم لفظة الجلالة في الآية لإفادة الاختصاص والانفراد بملك الله لهما لا يشاركه في ملكه أَحَدٌ ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وكلمة ﴿**قَدِيرٌ**﴾ من أسماء المبالغة، أي قدرة الله سبحانه تشمل كل شيء في الوجود لا تعجز عن إيجاد شيء ما.

﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي إنَّ المُتأمّل في خلقهما يرى فيهما من عجيب الإبداع، وإحكام الصنعة، وبقائهما في الفضاء من دون أن يختلّ توازنهما أو يرتطم بعضهما ببعض ﴿**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ وتعاقبهما على سطح الأرض كل منهما يخلف الآخر باستمرار ﴿**لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ إن في ذلك كله لدلالات واضحات، وبراهين بينات تدل على وجود خالق لهما وهو الله سبحانه يدركه أصحاب العقول السليمة الخالصة من شوائب النقص.

هذا منهج جديد دعا إليه القرآن وهو التفكُّر في الكون للوصول إلى الإيمان بالله عن يقينٍ واقتناعٍ لم تعرفه الديانات السابقة قبل الإسلام.

ولنستعرض بإيجازٍ بعض أسرار الله في خلقه بما ذكرته الآية: (١) خلق السماوات (٢) خلق الأرض (٣) اختلاف الليل والنهار.

خلق السماوات

إذا نظرنا إلى السماء وأحصينا عدد النجوم التي تتراءى لنا بالعين المجردة، سواء منها النجوم بما يظهر في نصف الكرة الأرضية الشمالي، أو ما يظهر في النصف الجنوبي، لَرَأينا عددها لا يزيد على ستة آلاف، ولكن إذا نظرنا إلى السماء من خلال المناظير الضخمة التي توصّل العلماء إلى صنعها لَتَراءت لنا مجموعات هائلة من النجوم في الفضاء، أطلقَ الفلكيُّون على كل مجموعة منها اسم (مَجَرَّة) وكل مجرَّة بالإضافة إلى ما فيها من نجوم تحتوي على مذنَّبات وسُدُم[1]، وأقمار، وكواكب، وكويكبات، وشُهب.

وقد أحصى علماء الفلك حتى الآن أن عدد المجرات يُقدَّر بنحو مائتي ألف مليون مجرة على الأقل[2]، وتتراوح أعداد النجوم في المجرات بين المليون والعشرة ملايين وملايين الملايين[3].

وأن النجوم في الفضاء التي تَتَراءى لنا بالعين المجردة بما فيها

(١) السدم: أجرام سماوية هائلة الحجم يقدّر عددها في الكون بالملايين وهي سحابية الشكل بعضها معتم وبعضها مضيء بسبب ما يتخللها من نجوم.
(٢) عن كتاب (السماء في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار، ص١٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٧.

المجموعة الشمسية تابعة للمجرّة التي أطلقوا عليها اسم (درب اللبانة) وهي تحتوي على مليار نجم[1].

ويقول الدكتور أحمد زكي: إن تِلِسْكُوب جبل بالومار بكالفورنيا وهو ذو مرآةٍ قطرها نحو (٥) أمتار يستطيع الكشف عن ألف مليون مجرة في كلٍّ منها في المتوسط ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم[2]. واختلاف ما ذُكِرَ في عدد المجرّات والنجوم هو تبعًا للمصادر المأخوذة عن علماء الفلك.

أحجام النجوم: ربما اعْتَقَدَت الشعوب قديمًا وبالأخصّ في عصر نزول القرآن أنّ النجوم ليست سوى مصابيح فضية صغيرة معلّقة في القبة الزرقاء، ولكن الحقيقة التي توصّل إليها العلم منذ قريب أنّ كلّ نجمٍ هو شمس كشمسنا يحتوي على كُتلٍ ضخمة من الغازات الملتهبة في درجة حرارية عالية بدرجةٍ مذهلةٍ، وبعبارةٍ أُخرى أن الشمس نَجْمٌ كسائر نجوم السماء، وهي إن بدت لنا كبيرة فهي لقربها منا، ويُقدَّر بُعدها عنّا بحوالي مائة وخمسين مليونًا من الكيلومترات[3] وحجمها يزيد على مليون ضعف حجم الأرض.

أبعاد النجوم: إنَّ المجموعة الشمسية التي تنتسب إليها الأرض تكاد تكون منعزلةً انعزالًا تامًّا في الفضاء لِمَا تبعد عنها النجوم الأُخرى، أمّا إذا احتجنا أن نقيس أبعاد النُّجوم الأخرى فلا يكفي الألف مليون بل لا بدّ من مليون المليون، ولهذا اتخذ علماء الفلك من سرعة الضوء وحدة للقياس قدّرها العلماء بـ١٨٦,٠٠٠ ميلًا في الثانية، فبينما تبعد عنّا الشمس ٨ دقائق ضوئية فإنَّ أقرب النجوم إلينا بعد الشمس ويُدعى (الفاقنطوروس) يبعد عنا ٤,٣ سنة ضوئيّة، وهناك من النجوم ما يبعد عنا بلايين السنين الضوئية.

(١) المصدر نفسه، ص١٤٩.
(٢) نقلاً عن كتاب (في سبيل موسوعة علمية) دار الشروق، ص٥٣٦.
(٣) عن كتاب (السماء في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار.

فهذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع الذي لا يستطيع العلم إدْراك اتّساعه المُحكم البناء، يفضي إلى حقيقةٍ مؤدّاها أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد وُجِدَ بمحض المُصادفة، بل لا بُدَّ له من مُوجِدٍ عظيمٍ أَوْجَده من العدم، له من العلم والقدرة والحكمة ما لا يستطيع العقل تصوره وإداركه.

خلق الأرض

والأرض بتكوينها وما عليها من كائنات تشهد بوجود الله سبحانه الذي أبدعها على تلك الصورة المعهودة.

فالأرض التي نعيش عليها وما تحتويه من سهول وبحار وجبال ووديان وما في جوفها من ثروات معدنية من مختلف العناصر ومصادر الطاقة المتعدّدة من نفط وفحم حَجريٍّ، وما على سطحها من أنواع النّبات والشجر والأزهار المختلفة الألوان التي تعبق بمختلف الروائح الزكيّة، كما يحيا على سطحها اليوم أكثر من سبعة مليارات نسمة من الآدميين، ويعيش أيضًا على سطحها وفي البحار أكثر من مليون ونصف المليون نوع من أنواع الكائنات الحيّة، كل صنف من هذه الكائنات ينفرد بأمور خاصة به في نمط معيشته والمحافظة على وجوده والحصول على رزقه. يضاف إلى ذلك أنواع الطيور ذات الألوان الخلّابة التي يصدح بعضها بأعذب الأصوات. أما يشهد ذلك كله بأنَّ له خالقًا عليمًا حكيمًا يدبّر وييسّر، وأن الصدفة أو التطوّر الذي يقول بذلك الملحدون لا يمكن أن يُنشأ هذه الأرض وما عليها من مخلوقات على هذا الشكل المعهود.

وصدق الله إذ قال بما ذكره القرآن:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣، ٤].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

اختلاف الليل والنهار

ومن عظمة القُدرة الإلٰهية أنها أوجدت الليل والنهار بما فيهما من منفعة للعباد والكائنات الحيّة والنبات، قال الله تعالى:

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فالأرض تدور كالبلبل باستمرار ليلًا ونهارًا على محورها، ومحورها خط وهمي يخترق الأرض من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي. وتُكمل الأرض دورة واحدة كل ٢٤ ساعة، وعندما يقع جزء من الأرض في مواجهة أشعة الشمس يكون نهارًا، وعندما لا تصل أشعة الشمس إلى ذلك الجزء وتجتازه ينتهي النهار ويحلُّ الليل.

والأرض لا تدور كالبلبل المستقيم بوضع عموديّ، بل إنها تدور وهي مائلة، كما أنها لا تدور في مكان واحد إذ إنها تدور أيضًا حول الشمس، وهذان الأمران: أي ميل الأرض ودورانها حول الشمس يُنشئان ليلًا ونهارًا مختلفَي الطُول ويُسببان الفصول الأربعة.

ومن الآيات الباهرة في صنع الله الذي أتقن كُلَّ شي الدِّقَّة الباهرة في دوران الأرض بحيث لا تخطئ ثانية من الثواني. ودوران الأرض بهذه الدِّقَّة له تأثير عظيم في الحياة على سطح هذه الأرض، فلولا هذا الدَّوران المنتظم لفرغت البحار والمحيطات من مائها، ولو دارت الأرض أسرع مما تدور لتناثرت المنازل وتفكك ما على الأرض، ولو دارت الأرض أبطأ مما تدور لهلك من عليها من حرٍّ ومن برد.

فهل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس باستمرار بهذه الدِّقَّة هو مصادفة؟ لا يقول عاقل بذلك أبدًا، وعظمة القرآن أنه لَفَتَ الأنظار إلى اختلاف

الليل والنهار الذي غفل عن أسراره كثير من الناس، وبإدراك الناس أسراره، يزداد إيمانهم بالخالق ويدركون عظمته ويذكرونه باستمرار. وقد جاء في القرآن:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

ثم وصف الله أصحاب العقول السليمة الذين أدركوا عظمة الله من خلال تبصّرهم في خلق هذا الكون، فقال عنهم:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ فهم يستحضرون عظَمة الله في قلوبهم، ويُكثرون من ذِكره وتسبيحه وتقديسه في جميع الأحوال، فهم يذكرونه وهم قائمون، ويذكرونه وهم قاعدون، ويذكرونه وهم مضطجعون ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويتفكرون في هذا الكون العجيب الذي يسير على غاية النظام والحكمة والإبداع، فيزيدهم هذا التفكُّر إيمانًا على إيمانٍ فيُناجوا ربّهم بخضوعٍ وإجلالٍ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا﴾ أي ما خلقت يا ربّ هذا الكون عَبَثًا خاليًا من الحكمة، بل خلقته مشتملًا على حِكَمٍ جليلةٍ ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تنزّهتْ ذاتك يا ربّ عن النقص وعن كل وصفٍ لا يَليق بِعَظَمَتِكَ، فاْحفظنا من عذاب النار يوم القيامة، ووفّقنا للعمل بما يُرضيك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ ربّنا إنّك من تدخله نار جهنم لِكُفْرِهِ ومعصيته لكَ تكون قد فَضَحته أمام الخلائق جميعًا وأهَنته ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وليس للظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي من أنصار يخلّصونهم من عذاب النار التي أعدّها الله لهم.

وهؤلاء الذين ترسَّخ الإيمان بالله في قلوبهم يُناجونه أيضًا قائلين: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ المُنادي الذي دعا

الناس جميعًا للإيمـان بوجود الله ووحدانيته هو الرسـول محمد ﷺ، وقيل: المراد بالمُنادي الذي يدعو الناس للإيمان بالله هـو القُرآن، فآياته تدعو إلى الإيمان بالله وتقدّم البراهين على وحدانيته.

ويتابع المؤمنون مُناجاة ربهم:

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَـيِّئَاتِنَا﴾ أي نسـألك يا ربّ بأن تغفر لنا ذنوبنا وتسترها وتعفو عنها، وأن تُكفِّر عنا سـيئاتنا بأن تزيلها وتمحوها. وقيل: المراد بالذنوب كبائر الخطايا، وبالسيئات صغائرها. وقيل: إن الذنوب التقصيـر في عبـادة الله وكل ذنب في جانب الله، والسـيئة كل عمل تسـوء عاقبته في الدنيا والآخرة وتسوء صاحبها أو تسوء غيره **﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾** والأبرار: جمع بارّ أو برّ وهو الذي يتوسـع في طاعة الله، فالمؤمنون يطلبون من ربهم أن يموتوا وهم في حالة الطاعة لله وأن يكونوا في زمرة عباده الأبرار كالأنبيـاء والصالحين من عباد الله **﴿رَبَّنَـا[(١)] وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُـلِكَ﴾** أي يا ربّنا أعْطنا ما وعدتَنا على ألْسِـنة رُسُـلك من التوفيق لطاعتك والنصر على الأعداء والحياة الطيبة في الدُّنيا ودخول جنتك في الآخرة **﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** ولا تُهِنّا، ولا تفضحنا يـوم القيامة بإدخالنا نار جهنم **﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَـادَ﴾** والميعاد: هو الوعد، أي إنّك يـا ربّ لا تُخلف ما وَعدت به المؤمنين من النعيم في الآخرة، لقد سـألوا ربّهم ذلك للمبالغة في التعبُّدِ والخشوع له وأن يعصمهم من الزَّلل بأن لا يسوء حالهم.

---

(١) من الملفت للنظر أن هذه التضرعات من المؤمنين اسـتهلت بلفظ (ربنا) وهذا اللفظ تكرر خمس مرات، وقد فهم من ذلك الإمام جعفر الصادق فقال: من حَزَبَهُ أمر فقال خمس مرات (ربنـا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه مـا أراد، قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرأوا إن شـئتم قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا...﴾** إلخ، إلى الآية التي استهلت بقوله تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...﴾** فإن هؤلاء الأخيار قد نادوا ربّهم خمس مرات فأجاب الله دُعاهم.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ
أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ
فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (١٩٦)
مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ
عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ
لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا
يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (١٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٢٠٠)﴾

شرح المفردات

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أي أجاب دُعاءهم.

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: أي بعضكم كبعض، لا تفرقة بينكم.

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ: لأسترنَّ عليهم ذنوبهم ولأمحُونَّها عنهم.

حُسْنُ الثَّوَابِ: حُسْنُ الجزاء على الأعمال الصالحة.

لَا يَغُرَّنَّكَ: لا يخدعنَّك.

تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ: تصرّفهم في البلاد للتجارات وكسب الأموال ورغد العيش.

وَبِئْسَ الْمِهَادُ: أي بئس ما عهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، والمهاد هو الفراش.

نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ: ضيافة وإكرامًا لهم من عند الله.

رَابِطُوا: أقيموا في الثغور مترصّدين لغزو العدوّ لِدَحرهم، والثغور هي الحدود التي تفصل بين المسلمين وأعدائهم.

صَابِرُوا: كونوا أصبر من الكفار في شدائد الحرب.

مصير المؤمنين الصادقين في الآخرة

وبعد تلك التضرعات والابتهالات من المؤمنين لربّهم بأن يغفر لهم ذُنوبهم ويُعطيهم ما وعدهم على ألْسِنة رُسله ويُدخلهم الجنّة مع الأبرار، بعد هذه التضرعات أجابَ اللهُ دعاءَهم بقوله:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ أي فأجاب الله دعاءهم وحقّق لهم رجاءهم بأنه لا يُضيع عَمل عاملٍ منهم، بل سَيُجازيهم على أعمالهم بالجزاء الأوفى، ولن يُفرّقَ الله عطاءه بالثواب بين ذَكَرٍ وأُنثى **﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾** أي بعضكم من بعض في الطاعة والعمل الصالح، أي أنتما متماثلان فلا تفرقة بينكما في ثواب طاعتكما لله[1].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم من أجل دينهم وطاعتهم لله، وأُخرجوا من ديارهم فِرارًا من ظلم

(١) أين هذه المساواة بين الرجل والمرأة التي قرّرها القُرآن مما كانت عليه المرأة في الهند واليونان والرومان والقرون الوسطى، حيث كانت المرأة منبوذة محتقرة دون الرجل، وكانوا يعتبرونها رمز غواية ومصدر شرّ وأداة من أدوات الشيطان؟

الظالمين واضطهادهم لهم **﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾** أي تحمّلوا الأذى والاضطهاد للدفاع عن دين الله **﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾** أي قاتلوا أعداء الله واستشهدوا في سبيله **﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾** لَأغفرنّها لهم وأمْحونّها ولَأتَفضّلَنّ عليهم بعفوي ورحمتي **﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** أي ولَأُدْخِلَنّهم في الآخرة جنّات النعيم تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنّة **﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾** جزاءً لهم على ما عملوا واستشهدوا في سبيل الله، والله عنده حُسْنُ الجزاء بدخولهم الجنة والتمتع بنعيمها بما لا عَين رَأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بَشَر.

ولمّا كان بعض المؤمنين يرون المشركين في رخاء وبحبوحة من العيش فيقولون في أنفسهم: إنَّ أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في ضيقٍ من العيش لهؤلاء يخاطبهم الله بقوله: **﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾** أي لا يخدعنَّك أيها المؤمن ما تُشاهده بما عليه الكفار من سعة الرّزق ورخاء العيش **﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾** أي ما يتمتّعون به من ملذّات الدُّنيا وشهواتها ما هو إلّا متاع قليل زائل لا يدوم **﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾** ثم مكانهم الذي يستقرّون فيه في الآخرة هو جهنم لِيُعَذَّبوا بنارها، وبئس الفِراش لهم تلك النار التي يعذّبون بها.

وفي هذا مواساة للمؤمنين وتعزية لهم عما يرونه من غنى وجاه وترف للمشركين وما ينتظرهم من مصير سيئ، وفي الوقت نفسه توجيه للمؤمنين للصبر على ما هم عليه من شظف العيش، وأن يجعلوا همهم في الحياة العمل الصالح الذي يُوصلهم إلى مرضاة الله وسعادة الآخرة.

ثم يُبيّن القرآن حُسْنَ مآلِ المؤمنين:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أي لكن الذين اتقوا الله بطاعته واتّباع مرضاته في العمل بما أمرهم وأجتناب ما نهاهم عنه لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وهم ماكثون فيها أبدًا، لا انقطاع لما هم فيه من نعيمٍ ولا زوال له ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ والنُّزُل: ما يُعَدُّ للضيف لإكرامه والحفاوة به، وهذا الإكرام هو من فضل الله وكرمه وإحسانه ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وما عند الله من الخير والكرامة والنعيم الدائم خير للأبرار مما عليه الذين كفروا من نعيمٍ قليلٍ زائلٍ في الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن أهل الكتاب وأنهم ليسوا سواء بل منهم الأخيار، ومنهم الأشرار:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾

أي أن بعض اليهود والنصارى يؤمنون بالله الواحد وما يجب له من صفاتِ الكمال، وما أُنزل إليكم أيها المسلمون من القرآن، وما أُنزل إليهم من التوراة والإنجيل ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾ خاضعين لله بالطاعة خائفين منه، متذلّلين له ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يستبدلون بآيات الله عَرَضًا من أعراض الدنيا من مالٍ وجاهٍ، ولم يشتركوا مع قومهم في كتمان ما جاء في التوراة والإنجيل من المبشرات بقرب مجيء النبيّ محمد ووجوب الإيمان به واتّباعه، ولكن رؤساء أهل الكتاب حرّفوا وبدّلوا هذه المبشرات وفسّروها على غير ما جاء به النبيّ محمد وادّعوها لغيره من الأنبياء حرصًا على ديمومة ما هم عليه من الرياسة والجاه على قومهم، وإنَّ ما ينتفعون به هو قليل لأنَّ مُتَعَ الحياة الدنيا فانية سريعة الزوال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أُولئك الذين لا يستبدلون بآيات الله ثمنًا قليلًا لهم أجرهم الجزيل عند ربهم ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فهو سبحانه سريع في إنجاز الحساب لعباده لا يُعجزه إحصاء أعمالهم ومحاسبتهم عليها لأنه القادر على كل شيء.

هذه الآية نزلت في من أسلم من أهل الكتاب: من أحبار اليهود ومن النصارى. أمّا أحبار اليهود فلم يبلغوا عشرة، وفيهم عبدالله بن سلام وزيد بن سعنة، وأما النَّصارى فقد أسلم منهم أربعون من أهل نجران، وثمانية من الروم، واثنان وثلاثون من الحبشة، ومن هؤلاء النجاشي ـ مَلِك الحبشة ـ وبعض علماء دينه، وقد جاء في الصحيح: أنّ النجاشي لمّا مات، نعاه النبيّ محمد ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فقوموا فصلّوا عليه» فقمنا فصفّنا صفّين[1].

وقد أثنى النبيّ محمدٌ على اليهود والنصارى الذين يُصدِّقون به ويتّبعونه فقال: «ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين، وذكر منهم: رَجُلٌ من أهل الكتاب آمَنَ بنبيِّه ثم آمن بي...»[2] في هذا الحديث النبويّ إشادةٌ بأهل الكتاب وما يحصل لهم من الأجر العظيم إذا آمنوا بنبوّةِ محمدٍ واتّبعوا ما جاء به من الهدى. وأقول بإخلاص: ماذا يمنع اليهودي أو النصراني من الإقبال على دراسة الإسلام بتجرُّدٍ طَلَبًا للحقيقة ولا ينام على موروثاته التي ورثها عن آبائه وأجداده؟ وإذا اقتنع بنبوّة محمد وآمن به واتّبعه نال الأجر مرتين من عند الله كما ذكر النبي محمد ﷺ ذلك.

ويختم الله هذه السورة بهذه الآية الجامعة لمعاني الخير والفلاح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالله سبحانه يخاطب المؤمنين بقوله ﴿اصْبِرُوا﴾ والصبر جماع الفضائل وهو ضبط النفس عن الانسياق لأهوائها وشهواتها الضارة وتحمّل النفس المكاره وشدائد الدنيا من الفقر والمرض راضية غير ساخطة، وتقبّل المصائب بصبر من دون جزع وانهيار للنفس، احتسابًا لوجه الله، ويقينًا بما أعدَّ اللهُ للصابرين

(١) أخرجه مسلم.
(٢) متفق عليه.

من الأجر الجزيل يوم القيامة، وكذلك الصبر على مشاقّ الطاعات بما أمر الله به وما نهى عنه، والصبر عند الغنى وما قد ينشأ عنه من بَطَرٍ وإسْرافٍ وفرح، والتزام لحدود الله وشكره من دون إيذاء الناس بالتفاخر عليهم والتكبّر. ومن الصبر تحمّل الفشل وآثار الهزيمة بدون يأسٍ، ومعاودة الجُهد للوصول إلى الهدف المرتجى. كما يأمر الله المؤمنين بقوله: ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أيها المؤمنون أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ولا تكونوا أقلّ منهم صبرًا وثباتًا. كما أن المُصابرة تكون بتحمُّل المكاره الواقعة بين المؤمن وغيره كتحمّل الأخلاق الرديئة والأذى من أهله وجيرانه، وترك الانتقام منهم وعدم مقابلتهم بالمِثْل.

وأخيرًا يأمر الله المؤمنين بقوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾ وهي مُفاعلة من ربط، وهو ربط الخيل للحراسة في ثغر[١] من الثغور استعدادًا لِصَدِّ العدوّ عند الاعتداء على بلاد المسلمين. وليس بلازمٍ أن يكون الرباط بالخيل في كل زمان ومكان، وقد كانت الخيل قديمًا من أهمّ الوسائل التي يستعملها المحارب، بل المقصود رصد حركات العدوّ والتأهب لصدّه عند الاعتداء بكافة الأسلحة الحديثة أرْضًا وبحرًا وجَوًّا. وقد بيّن رسول الله ﷺ ثواب المرابطة للدفاع عن ديار الإسلام، فقال: «رِباطُ يَوْمٍ في سَبيلِ اللهِ خَيْرٌ من الدُّنْيا وما عَلَيْها»[٢].

ومما يُذكَرُ في هذا المقام أنّ النبيَّ ﷺ شَبَّه المُداومة على أداء الصلاة بالرِّباط في سبيل الله فقال: «ألا أَدُلُّكُم على ما يَمْحو اللهُ به الخَطايا ويرفعُ الدّرجات»؟ قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «إسْباغُ الوضوء على المكارِهِ[٣]،

(١) الثغر: هو الموضع الذي يكون حدًّا فاصلًا بين بلاد المسلمين والكفار.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) إسباغ الوضوء على المكاره: المبالغة في إتمام الوضوء ولو صاحب ذلك مشقة ما.

وكثرةُ الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة إلى الصلاة، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط»[١].

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أَمَرَ به والانتهاء عمّا نهى عنه. لقد دعا الله المسلمين إلى تقوى الله لعلهم يفوزوا في الدنيا بالحياة الطيبة وفي الآخرة بالثواب الحسن من الله.

هذا وقد ثبت في الصحيح مما رُوي عن النبي ﷺ أنّه كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة (آل عمران) إذا قام من الليل لتهجُّده، فقد قال ابن عباس ﷺ: بِتُّ عند خالتي ميمونة[٢]، فتحدَّث رسول الله مع أهله ساعة ثم رقد، فلمّا كان ثلث الليل الآخر قَعَدَ، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وما بعدها من الآيات ثم قام فتوضأ واسْتَنَّ[٣]، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذّن بلال فصلّى ركعتين ثم خرج فصلّى بالناس الصبح[٤]، كما روي عن النبي ﷺ قوله: «ويلٌ لِمَنْ قرأ هذه الآياتِ ولم يتفكَّرْ فيها»[٥]، يقصد أواخر سورة آل عمران.

(١) أخرجه مسلم.
(٢) ميمونة: هي زوج النبي ﷺ.
(٣) استَنَّ: نظّف أسنانه بالسواك.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه ابن حبّان في صحيحه.

كلمة شكر

في الختام أقدِّم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل، لِما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة العلّامة القاضي المستشار **الشيخ حسين يوسف غزال**

وإلى فضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ محمد شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير،

وإلى الأديبة الدكتورة **هدى رفيق سنو**

والدكتور **محمد عبد الرحمن المرعشلي**

اللذين أشرفا على تصحيح هذا التفسير قبل الطبع،

وأقدم شكري للأستاذ **توفيق حوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضم أكثر من مائة ألف كتاب. هذه المكتبة التي قدّمت لي كثيرًا من المراجع في مسيرتي الطويلة في تفسير القرآن والكتب التي أنجزتها،

وإلى **موظفي مكتبة كلية الآداب** في الجامعة العربية لما بذلوه من جهد في إمدادي بالمراجع العلمية،

كما أقدّم شكري لسماحة الدكتور **أحمد اللدن** على تفضله بكتابة اسم هذه السورة بخطه الجميل، وهو من أميز الخطاطين الذين عرفهم لبنان، إضافة إلى منصبه في الإفتاء والقضاء،

وأخيرًا أخصّ بالشكر **شركة سامو پرس غروب** على ما بذلته من جهد وعناية في تنضيد أحرف هذا التفسير وإخراجه بهذه الصورة الجميلة التي تريح القراء،

سائلًا الله أن يوفقنا جميعًا لخدمة كتابه الكريم.

عفيف عبد الفتاح طبارة

المراجع

- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.
- تفسير الكشاف للإمام محمود بن عمر الزمخشري.
- تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير.
- تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي.
- تفسير القرآن العظيم للعلّامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي.
- تفسير اللباب في علوم القرآن للإمام عمر بن علي الحنبلي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية الأندلسي.
- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي لمحمد بن مصلح الدين القوجوي.
- صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- تفسير كلمات القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.
- زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة.

الفهـــرس

تعريف بسورة آل عمران ٥

صفات الله وما اختص به سبحانه ١٠

آيات القرآن: محكمات ومتشابهات ١٥

مصير الكافرين في الدُّنيا والآخرة ١٩

التذكير بمعركة بدر ٢١

شهوات الدنيا والحرص عليها ٢٣

الكون يشهد بوحدانية الله ٢٨

الخضوع لله والإخلاص له ٣٣

جزاء قتل الأنبياء ٣٤

عظمة القدرة الإلَهية ٣٧

لا يخفى على الله شيء من أعمال الإنسان ٤١

الذين اصطفاهم الله والنشأة الطاهرة لمريم ٤٦

الملائكة تبشّر زكريا بولد اسمه يحيى ٥٠

منزلة مريم عند الله ٥٤

البُشرى بولادة عيسى عليه السلام ٥٥

ما خصّ الله عيسى من علم ومعجزات ٥٨

نجاة عيسى من القتل ٦١

خَلْقُ عيسى كمَثَلِ خَلْقِ آدم ٦٥

الدعوة إلى عبادة الله وحده ٦٩

ضلال اليهود وسعيهم لإضلال غيرهم ٧٣

بعض مساوئ اليهود وتحريفهم لكتاب الله ٧٧

العهد الذي أخذه الله على الأنبياء ٨٢

جميع أنبياء الله هم مسلمون ٨٥

مغبَّة الكفر بعد الإيمان ٨٨

الحلال والحرام من الأطعمة لبني إسرائيل ٩٢

الكعبة أول بيت وُضِعَ لعبادة الله ٩٣

محاولة اليهود الإيقاع بين المؤمنين والتفرقة بينهم ٩٦

دعوة إلى التكاتف حول الإسلام ١٠٠

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة ١٠٤

المسلمون كانوا خير الأمم ١٠٧

أهل الكتاب فيهم الصالح والآثم ١١١

عدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين ١١٣

غزوة أُحُد ١١٧

غزوة بَدْر ١٢١

التسليم لإرادة الله ١٢٥

تحريم الرِّبا ١٢٦

صفات المتقين وثوابهم عند الله ١٢٨

مواساة المؤمنين بما أصابهم من المحن ١٣٣

إشاعة مقتل محمد ﷺ وأثرها ١٣٧

تحذير المسلمين من طاعة الكافرين ١٤١

فرار بعض المسلمين من المعركة وعفو الله عنهم ١٤٥

دعوة المسلمين إلى الثبات على دينهم ١٥٠

وصية من الله لرسوله محمد ﷺ ١٥١

نفي الخيانة في الغنائم عن النبيّ ﷺ ١٥٤

أسباب هزيمة المسلمين بأُحُد ١٥٧

ثواب الاستشهاد في سبيل الله ١٦٠

مصير الكافرين في الآخرة ١٦٦

افتراءات اليهود على الله ١٧٠

الدنيا دار ابتلاء ١٧٤

التفكر في خلق الكون يؤدي إلى الإيمان بالله ١٧٨

خلق السماوات ١٧٩

خلق الأرض ١٨١

اختلاف الليل والنهار ١٨٢

مصير المؤمنين الصادقين في الآخرة ١٨٦

كلمة شكر ١٩٣

المراجع ١٩٥

كتب للمؤلف

- **روح الدين الإسلامي** — الطبعة الرابعة والثلاثون
- **مع الأنبياء في القرآن** — الطبعة الرابعة والعشرون
- **روح الصلاة في الإسلام** — الطبعة الثالثة والعشرون
- **الخطايا في نظر الإسلام** — الطبعة الثانية عشرة
- **اليهود في القرآن** — الطبعة الرابعة عشرة
- **الحكمة النبوية** — الطبعة الرابعة
- **تعلم كيف تحج** — الطبعة الثانية
- **THE SPIRT OF ISLAM**
- **الترجمة الإنجليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)**

صدر عن تفسير **(روح القرآن)** الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَـه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة النساء
- تفسير سورة آل عمران
- تفسير سورة البقرة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

978-9953-63-873-7 00532
9789953638737

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين